الجزء الثانى

مصر والحرب القادمة

(١)

«مصر والحرب القادمة فى المنطقة..»

فى تاريخ كل أمة تمر لحظة معينة، فإذا بها تصاب بنوع من الغشاوة الحقيقية: تضطرب مفاهيمها ويصيب مدركاتها عدم الوضوح، ويسيطر على عقلها عدم الصلاحية، أما قياداتها بجميع مستوياتها فهى مهلهلة لا تدرى أين الطريق الصحيح: قيادات سياسية فقدت الوعى، وقيادات عسكرية يصيبها الترهل، أما عن القيادات الثقافية فهى لم تعد سوى أبواق تهلل وترقص وتطبل.

المؤرخ يقف إزاء تلك الظاهرة فى حالة ذهول: كيف حدث ذلك؟ ولماذا حدث؟ هذه أمة تملك تقاليدها الواضحة الصريحة المقننة؛ فإذا بها وقد أصاب الاختلال كل مفاهيم الأمن القومى.

إن إطار القيم الذى يبلوره الأمن القومى هو وحده الذى يحدد العدو، ويفصله عن الصديق، وتنظيم مراتب العداوة، وكذلك مراتب الصداقة، وهذه القيادات المثقفة تتحول سواء بدعوى التسوية السلام العادل، أو نتيجة لعدم الوعى الحقيقى إلى صفاقة يزينون كل زفة، وظيفتهم لم تعد قيادة العقل القومى، وإنما هز الأرداف والدق على الطبول، والقيادات العسكرية التى من طبيعتها التقشف والصلابة تحولت إلى مجموعة من الموظفين يلهثون وراء المكاتب المكيفة.

البعض يصل به الأمر نعت هذه الطبقات بالخيانة، ولكن هل من الممكن تصور أمة كاملة تعيش الخيانة دون صوت واحد يرتفع مردداً حقيقة التقاليد؟ الأمر الجدير بالتساؤل: كيف يحدث هذا التطور؟ فإذا بشعب قوى صلب يتحول إلى طبقة من الجبناء الذين لا هم له إلا تشويه الحقيقة؟ لقد توصل العلماء إلى تحليل ما أسموه «علم الجهل» آن لنا أن نوجه اهتمامنا لما نستطيع أن نسميه «علم الجبن»!.

نموذج واضح لذلك؛ فى فرنسا خلال الأعوام الأربعة عشر السابقة على الحرب العالمية الثانية، **نموذج آخر:** فى ألمانيا أوائل القرن الماضى عندما اندفع نابليون باسم الثورة الفرنسية يمرغ فى الأوحال شرف الصلابة البروسية، قبل ذلك عرف التاريخ القديم نموذجين آخرين يفصلنا عنهما البعد التاريخى، ولكن الدلالة ومعنى الخبرة واحدة.

حدث أولا عندما غزا الفرس اليونان، وجاء النموذج الثانى فى روما، أثناء غزو «هانيبال» لإيطاليا، فى الأول حمل لواء الرفض «بركليس» وفى الثانية تصدى «كاتو» العجوز.

لنقف إزاء النموذجين الأقرب زمنيًا: ألمانيا وفرنسا، فى كلا النموذجين رأينا صورة غريبة لشعبين كلاهما يملك تاريخه العظيم، الممتلئ بالقدرة والمقدرة والصلابة والرجولة والكفاح وعدم الاستسلام، وقد تحول إلى فئران مذعورة، كان نابليون يفرض على القيادات البروسية أن تنحنى أمامه إلى حد الإذلال وهم سعداء بذلك: يسير بينهم وهو متنمر متكبر، والقيادة الألمانية والبروسية تحتفل بقدومه وهو لا يفعل سوى أن يدوس كرامتهم بنعل حذائه، وينتقل بأبصاره بين نسائهم باحثًا عن وجه يملأ بالحرارة ليلته، فإذا عثر على ضحيته ـ زوجة أحد قياداتهم ـ رأى على وجوههم الارتياح عسى أن يرضى عنهم وتهدأ ثورته عليهم، إزاء هذه الصفعات خرج صوت «فيشت» وهو وحيد ضعيف إلا من ثقته بنفسه وإيمانه بقضية بلاده وأمته يصرخ قائلا: «استيقظ أيها الشعب، هذه قيادات يجب أن تزيلها بضربة يد قوية، وفى ثلاث عشرة محاضرة علنية فى برلين، وخلال ثلاثة أشهر تحت سمع وبصر الملأ لم يتردد الزعيم الروحى فى أن يحاكم ليس فقط فرنسا فهذه أمرها سهل، ولكن هذا الشعب الألمانى وقياداته التى أصابها الاسترخاء وتجردت من الواجب والالتزام القومى.

النموذج يتكرر بصورة مختلفة فى بعض جزئياتها ولكنها ثابتة فى جوهرها فى فرنسا.

قبل الحرب العالمية الثانية وخلال عشرة أعوام كاملة أصاب فرنسا الثورة نوع من الاسترخاء، تحول القادة التاريخيون إلى أقزام، لم يعد أحد يتحدث إلا عن السلام.

بينما ألمانيا المهزومة تستعد للانتقام فى اللحظة التى أجبرت فيها على التوقيع على (معاهدة فرساى) كانت قياداتها تدرس الخبرة وتستخلص النتائج، وجاء هتلر وقد

صمم على أن يحيل فرنسا إلى حديقة يتنزه فيها رجاله بين معركة وأخرى، وبينما راح رجال فرنسا التاريخية يخدرون شعبها، كان هتلر يستعد، وحاول ديجول أن يعيد إلى أمته وعيها فلم يسمع سوى الاستخفاف، وجاءت الضربة، وكان لا بد أن تهزم فرنسا العظيمة، وهرب ديجول ليرفع راية العصيان، بينما اندفع جان مولان يقود المقاومة فى داخل فرنسا ودفعت الأمة الفرنسية ثمن ذلك خمسة أعوام من الاحتلال، وعدد ـ بالملايين ـ من القتلى، دون الحديث عن التخريب والتخلف، فلماذا حدث ذلك؟ المؤرخون المحايدون يعزون ذلك إلى أسباب ثلاثة: «الأول» الترهل فى القيادة السياسية والفساد الذى تسلل فى جميع عناصرها، «الثانى» الإرهاق الذى أصاب القيادة العسكرية التى أضحت تسعى إلى عدم حمل السلاح مهما كان الثمن وبأى ثمن، «الثالث» اختفاء أى ضغط من الشعب الفرنسى على القيادة لتستيقظ وتواجه الخطر الذى يقع على حدودها. أحد المعاصرين وصف الشعب الفرنسى بقوله: «إن فرنسا تموت فلا تقلقوا نزعها الأخير».

فهل سوف يقدر لنا أن نعاصر نموذجًا آخر فى الأعوام القادمة يأتى هذه المرة من منطقة الشرق الأوسط؟

تقارير مركز الدراسات الإستراتيجية فى تل أبيب تؤكد: إسرائيل تخطط لحرب قادمة.

«منذ أكثر من خمسة عشر عامًا انطلق صوت من القاهرة مستجيبًا إلى نداء جاء عبر الحدود بضرورة إنهاء الحرب بين مصر وأعدائها فى المنطقة، ووضع إطار شامل للسلام بين جميع عناصر هذه المنطقة، لم يعد العالم فى حاجة إلى قتال مستمر وجولات متتابعة، ولكنه فى حاجة إلى بناء نظام جديد أكثر تحضراً يفتح ذراعيه للنبوغ الفردى لنستطيع أن نقيم صرح حضارة جديدة أكثر تعبيراً عن واقع منطقة الشرق الأوسط، ومضت خمسة عشر عامًا، وأتت لحظة مواجهة الحقيقة بتقييم تلك الخبرة خلال تتابع وقائعها المختلفة، وقد استغرقت فترة جيل كامل تسمح لذلك التقييم بهدوء وعقلانية».

فلنتساءل أولا: ما هى خصائص السياسة الإسرائيلية خلال هذه الفترة والتى تبدو واضحة وبصفة خاصة خلال الأعوام الخمسة الأخيرة؟ هل هى تعبير عن قناعة بهذا

الحديث عن السلام، وبناء إطار جديد للتعامل أساسه حسن الجوار؟ نستطيع بإيجاز أن نستخلص المبادئ التى سيطرت على سياسة تل أبيب منذ بدء هذه الفترة وحتى اليوم فى مبادئ معلنة وواضحة ليست فى حاجة إلى مناقشة، وفى سبيل تحديد هذه المبادئ يجب أن نميز بين دوائر ثلاث: دائرة العلاقات المصرية الإسرائيلية، ثم دائرة التعامل الإسرائيلى مع منطقة الشرق الأوسط، وأخيراً دائرة العلاقات المصرية الأمريكية، ورغم أن هذه الدوائر تتداخل بحيث تصير بعض المتغيرات عناصر مشتركة وثابتة إلا أن الفصل بين هذه الدوائر يسمح بفهم أكثر وضوحًا.

نتوقف مؤقتا حول الدائرة الأولى وهى العلاقات المصرية الإسرائيلية.

قبل أن نتناول المبادئ التى تسود النظرة الإسرائيلية لعلاقات تل أبيب بالقاهرة يجب أن نقدم بعض الملاحظات.

الأولى: إن مقتضى التعامل المباشر بين القاهرة وتل أبيب، والذى بدأ مع اتفاقيات فك الاشتباك، وظل فى تصاعد مستمر حتى معاهدة السلام، أننا نعاصر عهداً جديداً تسوده الثقة ولو بقسط معين، أو على الأقل الرغبة فى إثبات حسن النية من الجانبين.

الثانية: إنه فى خلال هذه الفترة تغير الطاقم الحاكم فى إسرائيل على عكس الموقف فى مصر؛ حيث إن هذا الطاقم فى جوهره لم يتغير، فعقب حزب المابای ومن يحيط به حل حزب حيروت، وتكتل ليكود، والفارق بينهما يمثل خلافًا واضحًا.

الثالثة: إن أهم عناصر هذا الخلاف هو النظرة إلى إسرائيل على أنها دولة تنتمى إلى منطقة الشرق الأوسط، ليس فقط بحكم الوجود المكانى والعضوى بل إنها تاريخيًا وحضاريًا جزء لا يتجزأ من تلك المنطقة.

وذكر الكاتب أن سياسة العدو الصهيونى تجاه مصر منذ توقيع اتفاقيات السلام تقوم على ثلاثة أمور:

أولا: تخريب مصر من الداخل.

ثانيًا: عزل مصر عن محيطها العربى.

ثالثًا: خلق الشلل فى وظيفة مصر الإقليمية.

أولا: تخريب مصر من الداخل

مبدأ التعامل مع الخصم من الداخل لتقييد فاعليته الدولية ليس جديدًا فى نظرية العلاقات الدولية، أول من وضع هذا المبدأ النظام النازى من خلال خلق ما أسماه الطابور الخامس، ولكن كيسنجر عاد ليوظف هذا المبدأ من منطلق آخر أساسه العلاقات العضوية بين السياسة الداخلية، والسياسية الخارجية حيث نظر إلى السياسة الخارجية على أنها أداة لتنفيذ السياسة الداخلية.

السياسة الإسرائيلية تلقفت هذه التقاليد وأحالتها إلى خطة كاملة للحركة.

(أ) فهى تبحث عن جميع عناصر الضعف فى الجسد الداخلى، وتضخم منها، الضعف فى الجسد المصرى مرده عنصران أساسيان: الأزمة الاقتصادية من جانب وأزمة القيم السياسية من جانب آخر، فمصر تعيش حالة من الانهيار الاقتصادى الذى بدأ مع حرب ١٩٦٧، وهو يسير فى خطوات متتابعة، وأزمة القيم تعود إلى ذلك التحول المفاجئ فى ترتيب عناصر الأمن القومى، وهى تتعامل مع هذين العنصرين بطرق غير مباشرة ـ وكما سنرى فيما بعد ـ بتخطيط واضح أساسه إضعاف الجسد إضعافًا حقيقيًا.

(ب) كذلك فهى تتعامل مع عناصر التغير، إن أى مجتمع قوى لا يتوقف عن التطور والمتابعة الجادة والمستمرة فى التعامل مع المتغيرات المتجددة، عناصر التغيير فى أى مجتمع لا تعدو ثلاثة: الشباب والعقول والقيادات، الشباب بطبيعته متحفز، والعقول وظيفتها الحقيقية هى التجديد والإبداع، والقيادات لا تصير كذلك إن لم تكن مستعدة لأن تقود المجتمع فى مسالك جديدة تسمح بحل مشاكلها دون أن تفقد تقاليدها، إسرائيل عملت بطرق مباشرة وغير مباشرة على شل العناصر الثلاثة فى حياة المجتمع المصرى.

ثانيًا: عزل مصر عن محيطها العربى

فى بداية هذه المرحلة لعب الرئيس السادات على هذا العنصر لتحقيق هدفين:

الأول: إقناع إسرائيل والولايات المتحدة بجدية فى تلك السياسة، **الثانى**: إكراه القيادات العربية على محاسبة النفس ومعاودة التفكير، الذى حدث هو أن الجانب

العربى لم يفهم الدرس وانطلق فى سياسة المكابرة والعناد، وهكذا انطلق الرئيس السادات فى سياسة هى بطبيعتها خطوة تكتيكية فأحالها إلى خطة إستراتيچية، إسرائيل انتفعت بذلك ووسعت شقة الخلاف بجميع وسائلها، تارة باسم حماية الواقع القائم وتارة باسم مفاهيم الأمن القومى الإسرائيلى، وتارة باسم روح اتفاقية كامپ ديڤيد، عملت بطريق مباشرة بوضع مصر فى كفة الدولة المعادية للمحيط العربى، بل وصلت فى هذا إلى حد التوريط.

فمناحم بيجين يجتمع بالرئيس السادات فى الإسماعيلية ويدعو الصحافة لتستمع إلى تصريحات أساسها الصداقة والتعاون مع مصر الجديدة وهو قد أصدر أمره بتدمير المفاعل النووى بالقرب من بغداد وسوف يقدر لطائراته أن تخرج للاعتداء السافر فى الأيام التالية لذلك اللقاء، وهو أمر سوف يتكرر فى مواقف متعددة منها تعامل إسرائيل مع لبنان، بل إن إسرائيل لم تتردد فى أن تعلن أن معنى اتفاقية كامپ ديڤيد، التخلى عن ميثاق التعاون العسكرى والدفاع المشترك بين مصر والدول العربية.

ثالثًا: خلق الشلّل فى وظيفة مصر الإقليمية

كان المفهوم السائد فى القيادة الإسرائيلية العمالية، هو تطبيق مبدأ شد الأطراف، ومن ثم فقد اعتقدت تلك القيادة أن خير سياسة يجب أن تتبع هى خلق روابط وثيقة متجانسة أساسها التحالف الضمنى مع العواصم الثلاث: طهران، وأنقرة، ثم أديس أبابا، وهو تحالف تسيطر عليه ثلاثة مبادئ:

«المبدأ الأول» علاقات ثنائية بين تل أبيب وكل من هذه العواصم الثلاث.

«المبدأ الثانى» خلق التجانس بين المصالح الإسرائيلية والمصالح الأمريكية بحيث إن العلاقات الإسرائيلية تماثلها وتتوازى معها علاقات أمريكية مع دول الأطراف الثلاثة.

«المبدأ الثالث» تكتل ثلاثى: من ثم ضد المنطقة العربية، وبصفة خاصة ضد الوظيفة الإقليمية لمصر: تل أبيب واشنطن أديس أبابا، المايسترو الذى يحرك هذه التحالفات هو إسرائيل ولكن باستقلال تام فى كل تطبيق عن الآخر مع المشاركة الثابتة للولايات المتحدة.

مجموعة متغيرات جعلت إسرائيل تعيد النظر فى هذه السياسة، فمن جهة: إن كلا من هذه الدول الثلاث بدأت تبرز فى الساحة على أنها بديل أو مساندة لإسرائيل فى علاقة الولايات المتحدة بالمنطقة، فإيران لها وزنها، وشاه إيران يؤمن بأن عليه تقنين وظيفته لصالح الولايات المتحدة، وكذلك الحبشة ودون الحديث عن تركيا، كيسنجر بدأ يفكر فى توسيع فكرة الأعمدة المتعددة لمساندة النفوذ الأمريكى، حيث لا تصير إسرائيل وهى تمثل السند الوحيد..

وهكذا برزت **«أولا»**: فكرة تحويل قبرص إلى قاعدة أمريكية، **«ثانيًا»**: وفكرة الاستفادة مما تقدمه شبه جزيرة سيناء من إمكانات إستراتيجية، **«ثالثًا»**: والاعتماد الحقيقى على القدرة الإيرانية مع استغلال الموقع الإستراتيجى، **«رابعًا»**: توسيع دائرة التعامل مع تركيا ليس كعنصر من عناصر الحلف الأطلنطى، بل وكقاعدة متقدمة لحماية القواعد الخلفية للقيادة الأمريكية فى المملكة العربية السعودية وحولها، بدأت عندئذ إسرائيل تعيد النظر فى إستراتيجيتها ورغم أن الوثائق لا تسعفنا بهذا الخصوص، إلا أننا نستطيع أن نتصور المتغيرات.

(أ) فإسرائيل تريد أن تصير السند الوحيد للولايات المتحدة فى المنطقة، وهى لذلك عقب مجيء ليكود إلى السلطة وبتوافق تام مع فلسفة ليكود نجدها تسير فى هذا الاتجاه بأدلة مادية، ويكفى أن نتذكر حادثة ضرب المقاومة فى تونس، ثم قتل رجلها الثانى أيضًا فى تونس، إن هذا لم يكن سوى رسالة لواشنطن لذلك الذى تستطيع أن تفعله تل أبيب فى المنطقة.

(ب) وهى من ثم تسعى لأن تضعف علاقات واشنطن بأى من هذه الدول الثلاث، بدأتها بتركيا، وما أعقب قصة قبرص وبرود العلاقات الأمريكية التركية لم يعد خافيًا على أحد، ثم أعقبتها بالحبشة حيث لعبت الورقة اليسارية دورها الحاسم، ثم اكتمل ذلك التطور بإيران، والورقة الإسلامية بدورها لعبت دورًا أساسيًا.

(جـ) وهى تريد أن تجعل هذه الدول الثلاث مساندة لها فى التدخل فى المنطقة العربية، الحبشة فى قرن إفريقيا، وبصفة خاصة فى حوض النيل، تركيا فى كل من العراق وسوريا، إيران فى منطقة الخليج، إنها تقدم بهذا المعنى لتحرك اقتصادى يرتبط بالأهداف الإسرائيلية فى المدى البعيد نسبيًا وسوف نرى ذلك تفصيلا فيما بعد.

(د) وهى كذلك تسعى لخلق الصلة المباشرة بين العواصم الثلاث: طهران وأنقرة وأديس أبابا، وذلك تمهيداً لخلق إطار يحيط بالمنطقة العربية ويحصرها بين (كماشة) ضخمة تمتد من أقصى المشرق إلى الشمال من جانب والجنوب من جانب آخر.

(هـ) وهى تجعل هذا النفوذ وسيلتها لتقفز إلى ما هو أبعد، فإيران مقدمة للقفز إلى أفغانستان، وبصفة خاصة إلى الباكستان، حيث تحدثنا بعض الأنباء المتسربة عن تعاون خفى بين تل أبيب ودولة القنبلة الإسلامية، أديس أبابا مقدمة للقفز إلى دول باب المندب العربية، وبصفة خاصة من جانب دولة اليمن الجنوبى ومن جانب آخر دولة زائير بحيث تستطيع أن تشل مصر وتحاصرها فى إفريقيا.

المتغير الأساسى والحقيقى فى كل هذا الإدراك هو الرغبة الثابتة فى شل دور مصر الإقليمى بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

ثم يتساءل الكاتب عن دور مصر الإقليمى، والحضارى.. والقيادى.. فيقول: «لا توجد سوى مصر تستطيع أن تؤدى دوراً إقليمياً معيناً بحيث تقول كلمتها فى كل ما يحدث فى الإقليم، وتتحدث عن علاقة الإقليم بالإطار الدولى باسم ذلك الإقليم، فهى بكثافتها السكانية، وقدرتها التكنولوجية لا توجد أى قدرة أخرى تستطيع أن تنافسها، ويدعم ذلك موقعها الإستراتيجى حيث تتوسط المنطقة وبفضل قناة السويس وقدرتها على أن تتحكم فى باب المندب فهى قادرة على أن تتحكم فى جميع التعاملات بين أجزاء هذه المنطقة، المنطقة لا توجد فيها سوى كيانات هشة وإن وجدت بعض القدرات التى تستطيع أن تناوئها كتركيا والباكستان، فهى تقع على الحافة بعيدة عن القلب لا تملك القدرات الإستراتيجية التى تملكها مصر، إسرائيل تعمل على نزع هذا الدور الإقليمى أو شله بحيث إنها هى التى تأتى وتدعم من خلاله وجودها وسيادتها.

ومن ثم فإلى جانب تفريغ مصر من جميع عناصر القوة وعزلها عن محيطها العربى، يصير حصارها فى كل موضع تعودت أن تمارس فيه وظيفة قيادية منطلقاً طبيعياً لإكمال عملية التخريب، وإذا كانت سياسة (مناحم بيجين) لم تستطع تطويع الإرادة الشعبية المصرية من الداخل، وتطبيع علاقاتها مع دولة وادى النيل فإن سياسة خلفائه التى أساسها العمل على شل القدرة والفاعلية المصرية بأى معنى من معانيها هو منطلق آخر لتحقيق نفس الهدف، ويجب أن نعترف بهذا الخصوص، إنها ـ أى

السياسة الإسرائيلية ـ فعلا نجحت : لقد استطاعت أن تغسل عقول الطبقة المثقفة، واستطاعت أن تخلق أدواتها في داخل مصر وخارجها تارة بوعى حقيقى وتارة بلا وعى، وأضحينا نعاصر عمليات دق الطبول وزف القيادات والرقص على الحبال، وتلميع التفاهات فى مصر وخارج مصر.

ليكتمل هذا الإطار، لا بد أن ننتقل إلى دائرة أكثر اتساعًا من علاقات تل أبيب بالقاهرة، وهى التى تدور حول سياسة إسرائيل فى علاقتها بمنطق الشرق الأوسط، هذه الناحية فى حاجة إلى وقفة تأمل بما يعنيه ذلك من تفصيل فى كثير من الجزئيات، ولكننا فى هذا الإطار الذى حددنا والمتعلق مؤقتًا بسياسة إسرائيل مع مصر يجب أن نتوقف أمام ثلاثة عناصر أساسية :

أولاً : توريط دول المنطقة القوية.

ثانيًا : تدعيم تجزئة دول العالم العربى.

ثالثًا : البدء بإنشاء إسرائيل الكبرى.

سوف نترك جانبًا المفهوم الجديد والذى أساسه أن إسرائيل لم تعد فى نظر قيادتها دولة غربية تنتمى إلى الحضارة الأوروبية، وتمثل امتدادًا طبيعيًا لتلك الحضارة وإنما هى دولة شرق أوسطية ليس فقط بحكم الوجود المكانى بل أيضًا بحكم الانتماء الحضارى، **هذه الناحية** التى تملك أبعادًا عديدة سياسية واقتصادية فى حاجة إلى دراسة على حدة، ولكن الذى يعنينا هو أن هذه النظرة ارتبطت وتفاعلت مع سياسة إسرائيل نحو المنطقة، فهى أولا تعمل بوسائل معقدة على توريط الدولة القوية، ورطت مصر فى اتفاقيات كامب ديفيد.

ثم أوقعت الأسد فى مستنقع لبنان، وأكملت الطوق بدفع العراق للصدام مع إيران فى حرب استغرقت ثمانية أعوام، وهى لا تزال عامرة بجميع الاحتمالات.

الناحية الثانية : المتعلقة بتجزئة دول العالم العربى، بل جميع دول العالم العربى دون استثناء ذلك الذى يحدث فى لبنان هو نموذج لما سوف يحدث خلال الأعوام القادمة فى جميع الدول العربية، ويكمل ذلك البدء الجدى فى إنشاء إسرائيل الكبرى، غزو لبنان وضم جنوبه ليس سوى خطوة سوف تعقبها خطوات أخرى، إسرائيل تسير

فى سياسة توسع واضحة أفقيًا ورأسيًا، التوسع الأفقى بالضم استعدادًا لمرحلة الضم الرأسى حيث يحدث من جانب هضم ذلك الذى تم الاستيلاء عليه، ومن جانب آخر لعملية تهويد كلية وشاملة.

حدث ذلك نسبيًا فى منطقة الضفة والقطاع، وسوف يحدث غدًا فى جنوب لبنان والبقية آتية، وهنا يجب أن نتذكر أن الانسحاب من سيناء محدود الدلالة.

أولا: فسيناء لم ينظر إليها فى أى مرحلة من تاريخ الصهيونية على أنها جزء من أرض إسرائيل الموعودة.

ثانيًا: إن الانسحاب جاء نتيجة ضغط أمريكى وكما سبق ورأينا حدث فى لحظة كانت تفكر فيها واشنطن بخلق قواعد مستقلة عن إسرائيل؛ لتساند الوجود الأمريكى فى المنطقة.

ثالثًا: إن الانسحاب لا يعنى عدم إمكانية العودة، وهذه ناحية أخرى سوف نعود لتفصيلها فى موضع آخر».

«والوقع أن فهم السياسة الإسرائيلية فى المنطقة يفرض التعرض ولو بإيجاز للمبادئ المسيطرة على التعامل الأمريكى مع مصر، إن التطور الحقيقى الذى أصاب هذا التعامل هو التغير فى النظرة الأمريكية خلال فترة الخمسة عشر عامًا الماضية والذى خضع للتأثير الصهيونى لتتبلور هذه النظرة حاليًا حول عناصر معينة تدعو القيادات المصرية إلى القلق الحقيقى.

مبادئ السياسة الأمريكية فى التعامل الحالى مع مصر تدور حول أربعة عناصر أساسية:

أولا: سيادة مفهوم التوتر والاضطراب فى مصر.

ثانيًا: استخدام إسرائيل كأداة أساسية فى السياسة الأمريكية فى المنطقة بما فى ذلك علاقة واشنطن بمصر.

ثالثًا: معاملة مصر على أنها حظيرة لكلاب الحراسة وليس أكثر من ذلك.

رابعًا: إخضاع التعامل الاقتصادى مع مصر لنفس فلسفة التعامل مع الدول المحيطة بجنوب إفريقيا».

«المفهوم الأول وهو يعكس تطوراً خطيراً فى السياسة الأمريكية كشف عنه رجل المخابرات الأشهر قبل وفاته «كونساليز» فى وثيقته المعروفة باسم «القادة الحقيقيون للعالم» لقد كانت الفكرة السائدة المسيطرة على الإدراك الأمريكى هى ضرورة السعى نحو تحقيق نوع من الاستقرار فى المنقطة، إن هذا لصالح عملية الاستثمار واستنفاد ثروات المنطقة وهى لذلك ـ الدبلوماسية الأمريكية ـ لم تكن تتردد فى التعامل مع أسوأ النظم السياسة طالما كانت قادرة على تحقيق درجة معينة من الاستقرار، النظرة الجديدة والتى مبعثها الإدراك الإسرائيلى مختلفة، خلق درجة معينة من عدم الاستقرار والاضطراب المنضبط، هو خير إستراتيجية يجب أن تتبع، إنها تسمح بضبط الحركة والإكراه على الاهتمام بالمنزل الداخلى.

العنصر الثانى والذى هو محور السياسة الأمريكية، أن العلاقة بين إسرائيل وواشنطن لم تعد مجرد علاقة توظيف، بل أضحت علاقة عضوية حيث تصير إسرائيل مقدمة الحربة للسياسة الأمريكية، إسرائيل لن تصير مجرد دولة فى المنطقة ولكنها تصير الدولة التى تمارس وظيفة المنطقة فى إطار التوازن الإستراتيجى العام، وهكذا لن تصير فقط أداة واشنطن للتحكم فى دول المنطقة بل سوف تصير أداة واشنطن لاستخدام المنطقة سواء لمواجهة القدرة السوفييتية أو فى التعامل مع أوروبا الجديدة لصالح الولايات المتحدة وبصفة عامة هى أداة الإمبراطورية الأمريكية فى منطقة شرق البحر المتوسط.

العناصر الأخرى ليست فى حاجة إلى إيضاح مؤقتا

ما نريد أن نطرحه بصراحة ووضوح هل تؤمن إسرائيل بسياسة مستقبلية فى الأعوام القادمة تتفق مع مفهوم السلام؟ الإجابة عن هذا السؤال بالتفصيل هى هدفنا من هذه المقالات المتتابعة ولكننا نستطيع مؤقتًا أن نحدد النقاط الآتية:

أولا: إسرائيل تستعد لحرب قادمة والتقارير الصادرة عن مراكز الدراسات الاستراتيجية فى تل أبيب تؤكد ذلك.

ثانيًا: إن الحرب القادمة سوف تذكرنا بالانفجار النازى الذى لم يترك دولة فى أوروبا دون أن ينالها من تلك الحرب الرذاذ، كذلك فإن هذه الحرب لن تترك دولة

واحدة من دول الشرق الأوسط دون أن تتعامل معها، بل إنها قد تقود إلى مفاجآت محورها تحالف بين إسرائيل والدول غير العربية فى تمزيق خريطة المنطقة العربية.

ثالثًا: إنه فى انتظار هذه الحرب هناك خطة معينة قد بدئ فى تنفيذها للإعداد لميدان المعركة.

رابعًا: إن القيادة الإسرئيلية التى سوف تتحكم فى هذا التطور ليست القيادة السياسية الحزبية ولكنها القيادة العسكرية المهنية.

فهل تستطيع مصر أن تقف إزاء ذلك التطور موقف السلبية؟ وماذا نستطيع أن نفعل؟

* * *

(٢)

فلسفة إسرائيل الجديدة وموقعها فى منطقة الشرق الأوسط

نحن لا نريد سوى أن نفهم ما يجرى حولنا، تعود كيسنجر أن يقول: حصافة رجل الدولة الحقيقى هو أن يسير فى إطار أساسه صحة توقعاته، ونحن قد مضى علينا وقت لم نقتصر فيه على عدم القدرة على التوقع، بل وأضحينا نتهرب من رؤية الواقع، بل وتصل فى بعض الأحيان إلى الكذب على أنفسنا والتضليل فى حقيقة ذلك الواقع، نريد الحقيقة كما هى دون أى مغالطة ودون تغليف الحقيقة بما يجردها من مضمونها الواقعى.

ماذا يحدث فى إسرائيل، وإلى أين تسير القيادة الإسرائيلية؟

يخرج علينا من آن لآخر من يشوه الحقيقة يحدثنا عن تطور فى إسرائيل وعن قوى سياسية تتعاطف مع قضيتنا وعن تجاوب فى بعض الدوائر، فما هى حقيقة هذا التطور؟ وممن يصدر هذا التعاطف، هل هو من قوى لها وزن فى الخريطة السياسية؟ هل هو عملية تخدير من منطلق مبدأ توزيع الأدوار؟ أسئلة كان يجب أن يطرحها المسئولون بصراحة ووضوح ولكن من أين لهؤلاء القدرة على التفكير العلمى الواعى الدقيق؟ ولا نريد أن نتهم بأكثر من ذلك.

عودة إلى موضوعنا؛ نعتقد أن النقطة الأولى التى يجب أن نبدأ بها فى هذا التحليل تدور حول محور أساسى: حقيقة الفلسفة السياسية التى تسيطر على الإدراك الإسرائيلى الحاكم، والتى منها تنبع جميع عناصر التعامل مع مشكلة الشرق الأوسط أو بعبارة أدق برز لأول مرة مع مناحيم بيجين أثناء زيارته للقاهرة، كلمة تركت تمر دون تعليق عندما وقف أمام أهرامات الجيزة وقال: «هؤلاء أجدادنا بناة الأهرام».

هذه العبارة لم تكن عشوائية وإنما هى تعبير عن نظرة جديدة وقناعة جديدة هى التى تسود الطبقة الحاكمة الإسرائيلية منذ عام ١٩٧٧، والتى أساسها أن إسرائيل ليست امتداداً للحضارة الغربية فى المنطقة العربية وإنما هى دولة شرق أوسطية بحكم التواجد أولا والتاريخ ثانيًا وهى من ثم من حقها ليس فقط التحكم فى هذه المنطقة بل وقيادتها تعبيراً عن الوظيفة التاريخية للمجتمع اليهودى، وقد ترتبت وارتبطت بذلك نتائج عديدة سواء من حيث التخطيط للحركة أو من حيث التعامل الاقتصادى.

فما معنى ذلك؟ وما هى خلفياته ونتائجه على التعامل مع مصر؟

قبل أن ننطلق فى تحليل هذا المحور الخطير الذى على المخطط للسياسة الخارجية المصرية أن يكون واعيًا به، علينا أن ندفع ببعض الملاحظات التى يجب أن تكون واضحة فى الذهن منذ البداية:

الملاحظة الأولى: إن التوليفة الحاكمة فى إسرائيل تعكس انقلابًا حقيقيًا هذا الانقلاب هو التعبير عن وصول القوى المحافظة إلى السلطة واستقرارها فى السلطة إلى فترة لن ترى فى الأمد القريب نهايتها، القوى الحاكمة فى الوقت الحاضر فى تل أبيب هى توليفة بين اليمين التقليدى والقوى الدينية، وتتوسطها المؤسسة العسكرية، لا يعنينا هل ليكود أم تعاون بين ليكود وآخرين، أو كتلة العمل، وحتى لو قدر لحزب المابای وحده أن يحكم أنه لم يعد ولن يعد فى الأمد القريب سوى عنصر من بين عناصر هذه التوليفة، التى هى تعبير عما يحدث فى العالم الغربى من تطور نحو مفهوم اليمين الجديد، هذه اليمين الجديد هو المتربع فى السلطة فى الولايات المتحدة وفى مجموع دول أوروبا الغربية، بل وإلى حد معين فى الاتحاد السوفييتى، ليس هذا موضع تحليل معنى اليمين الجديد ولكن لنا عودة لذلك.

الملاحظة الثانية: إن من يصنع القرار حتى داخل الكنيست هو من يمثل هذه القوى الثلاث، لجنة الأمن القومى، والسياسة الخارجية لا يستطيع أن يجلس فيها من لا ينتمى إلى أحد الأحزاب الكبرى الثلاثة: حيروت، وكتلة ليكود، حزب العمل، الحزب الدينى أو كتلة المفدال، أما من عدا هؤلاء فلا وجود لهم فى تلك اللجنة، وهى التى تشارك فى صنع سياسة إسرائيل الخارجية، الكنيست يصوت ولا يناقش، هذا تقليد لم

تعرفه إسرائيل الخارجية، الكنيست يصوت ولا يناقش هذا تقليد لم تعرفه إسرائيل فقط منذ فترة قصيرة بل منذ وجود إسرائيل حتى اليوم.

الملاحظة الثالثة: علينا ألا ننسى أن إسرائيل تلجأ إلى تنفيذ سياستها إلى مبدأ توزيع الأدوار، فعندما تجد السلطة موقفها متعنتا أو صلبًا أو غير مقبول من الطرف الآخر تدفع بقوة جانبية للأخذ بزمام الموقف لتليين الطرف الآخر أو لقيادة العمل الدبلوماسي، حدث هذا مع الاتحاد السوفييتي، ومع الدول الإفريقية تقدم «الهستدروت» يأخذه بيده بزمام الموقف، بل فى الصين، نجد الموساد ـ أى جهاز المخابرات ـ هو الذى يتولى تنفيذ سياسة إسرائيل الخارجية، وهو اليوم يحدث أيضًا فى مصر؛ ولذلك لا يجوز أن تخدعنا بعض تصريحات أو تعبيرات متعاطفة، يجب أن نتساءل: ممن تصدر هذه التصريحات؟ وما هو وزنها الحقيقى فى خريطة القوى السياسة المتحكمة فى إسرائيل؟

وهل هى مرتبطة بدور معين محدد مسبقًا من حيث الزمان والمكان والهدف؟

الملحوظة الرابعة: إن إسرائيل تعاصر حاليا مرحلة من التمركز فى السلطة لم تعرفها فى تاريخها، ومرد ذلك أن الطبقة العسكرية التى تمثل قيادة المؤسسة العسكرية ليست تلك الطبقة التى تعودناها، لقد تعودنا رجالا وسياسيين أو مشبعين بالمفاهيم الأيديولوجية وصلوا إلى القيادة العسكرية عن طريق انتماءاتهم السياسية، موشى دايان نموذج واضح، اليوم لم يعد لذلك مجال، فالمؤسسة العسكرية يقودها مهنيون، هم عسكر تمرسوا على مهنة القتال منذ طفولتهم ونجحوا فى ذلك دون أن يرتبط هذا النجاح بتفوق مماثل فى قناعاتهم السياسية، بل ويغلب ألا تكون لهم انتماءات حزبية، الدولة بمفهومها الحقيقى اكتملت حيث أضحت مؤسسات ثلاث تعكس الوظيفة القومية، ولا تشترك فى المهاترات الحزبية: الجامعة والجيش والأداة الدبلوماسية، هذه القوى الجديدة التى حللها لنا أكثر من دارس هى المحور الحقيقى للتطور الذى تعيشه إسرائيل.

وانتقل الكاتب ليعرف بعلاقة الشرق أوسطية بدولة إسرائيل فقال: ما معنى إسرائيل دولة شرق أوسطية؟

فى خطبة «لشاريت» أمام الأمم المتحدة منذ قرابة ثلاثين عامًا عرف حقيقة إسرائيل ووظيفتها فى العالم المعاصر، وهو لم يكن فى هذا سوى بوق يعكس أفكار قائد الدولة

الصهيونية بن جوريون، إسرائيل هى دولة غربية، إنها امتداد للحضارة الأوروبية إنها الرضيع الذى وضعت جذوره القدرة والحضارة والتقاليد التى تنتمى إلى أوروبا ذات التقاليد الواضحة فى منطقة الشرق الأوسط، إسرائيل تدافع عن هذه الحضارة وتحمل علم هذه الحضارة، إنها واحة الديمقراطية فى صحراء التخلف، ما هى الحضارة الغربية فى أبسط مفاهيمها؟ ثلاثة عناصر متكاملة، ديمقراطية للنظام السياسى، احترام لكرامة وحرية الإنسان. . سيادة لمنطق العقلانية والعلمانية فى آن واحد، هذه هى المفاهيم السائدة فى الصهيونية العمالية.

وليكتمل هذا الإطار وضوحًا علينا أن نعود إلى تقاليد الصهيونية السابقة على إنشاء إسرائيل، لقد عرفت تلك التقاليد ـ بغض النظر عن المفاهيم الصهيونية ـ تقليدين: أحدهما اشتراكى وثانيهما يمينى«الأول» يستمد تقاليده الأولى من التطور اليهودى فى شرق ووسط أوروبا، وهو الاتجاه السائد والذى يمثله بن جوريون، «الثانى» الذى برز فى الثلاثينيات والذى يستمد تقاليده الحقيقية عن الدولة العلمانية من جانب وإيطاليا الفاشستية من جانب آخر، يوصف بالاتجاه التصحيح، حمل لواءه جابوتنسكى، واستطاع فى لحظة معينة أن يخلق مدرسة متكاملة مختلفة عن التوجه الأول، لا تعنينا التفاصيل والتطور التاريخى بقدر ما يعنينا جوهر هذا التوجه الفكرى.

أولا: فهو خلافًا للمدرسة العمالية، يجعل من الدين اليهودى هو المحور الحقيقى للصهيونية، والصهيونية هى لغة اليهودية فى القرن العشرين، العلاقة بين التوجه السياسى والتقاليد الدينية ليست علاقة توالد، ولكنها علاقة ترابط بحيث أن كليهما وجه آخر لحقيقة واحدة، على العكس من ذلك فإن التوجه الاشتراكى يرى فى اليهودية أحد مصادر الصهيونية، الصهيونية هى حصيلة تطور اندمجت فيه عناصر أربعة: قيم اشتراكية عنصرية قومية، ثم تعاليم وتقاليد يهودية، وهكذا الصهيونية تصير تزاوجًا بين مصادر أربعة فرضت عليها التطورات التاريخية الاندماج، لتكون نموذجًا بين الإنسان اليهودى وبعبارة أخرى الدين اليهودى يصير أحد عناصر التكوين للصهيونية فى التطور الاشتراكى، بينما يصير هو والصهيونية حقيقة واحدة فى التصور الآخر، الدين اليهودى بتعاليمه هو المحور الحقيقى للحركة الصهيونية، من العبث الحديث عن العلمانية فى الدولة العبرية.

ثانيا : ويرتبط بذلك النظرة إلى الاستيطان اليهودى فى أرض فلسطين، فهو فى هذه النظر التصحيحية أى نظرة جابوتنسكى وتابعية تعبير واضح عن جهد استعمارى أنه ليس مجرد مشكلة خلق إطار للتطور الطبيعى للوجود اليهودى، فى شكل دولة قومية كما يحدث بالنسبة لجميع المجتمعات المعاصرة التى وصلت إلى مستوى معين من الإيناع للقدرة الذاتية، وهذا ما يقوله هرتزل وأبناؤه، وإنما هو امتداد للحركة الاستعمارية التى نشأت وتبلورت فى علاقة العالم الغربى بالعالم المتخلف والملون خلال قرنين من الزمان، ورغم أننا سوف نرى فيما بعد كيف أن جابوتنسكى ـ وبصفة خاصة خلفاؤه ـ لن ينظروا إلى إسرائيل على أنها امتداد للحضارة الغربية، إنه فقط فى هذه الناحية يرى هؤلاء أن هناك علاقة وثيقة بين التراث الأوروبى وإنشاء إسرائيل، عملية إنشاء إسرائيل فى ذهن جابوتنسكى هى إعادة بناء مملكة إسرائيل وهذه المملكة هى الشىء الوحيد الذى يصير إنجازًا حقيقيًا للسياسية الأوروبية فى الشرق الأوسط.

ثالثًا : مملكة إسرائيل يجب أن تشمل كنقطة بداية كل ما يتصل بفلسطين التى كانت تحت الانتداب البريطانى أولا وأن تستوعب ضفتى نهر الأردن الغربية والشرقية من جانب آخر، إن فكرة التدرج فى إنشاء إسرائيل وفى إعلان النوايا الحقيقية للصهيونية لا موضع لها، على الحركة الصهيونية أن تعلن منذ البداية أهدافها الحقيقية وعليها أن تنطلق فى إنشاء دولة إسرائيل التاريخية هى تلك التى حددتها المصادر التوراتية.

رابعًا : وفى سبيل تحقيق هذا الهدف ليس أمام الشعب اليهودى سوى استخدام القوة والعنف بجميع تطبيقاته.. إن العنف هو الذى يقود إلى الخلاص القومى، ليست هناك دولة لم تنشأ إلا بحد السيف، والصراع العسكرى هو مرحلة أساسية فى البناء القومى حيث ينتقل الشعب من السلبية إلى الإيجابية هذا الصراع هو وحده الذى يكسب الشعب احترام الذات، فقط الصراع والألم والعنف والدماء هو الذى يثبت للشعب إزاء نفسه أنه جدير بأن يرتفع إلى مستوى الأمة.

خامسًا : وتبعًا لذلك فالخلاف بين الصهيونية العمالية، والصهيونية التصحيحية ـ أيضًا فيما يتعلق بالسياسة الخارجية ـ واضح ودقيق، وسوف نرى كيف يعود هذا الخلاف ليسيطر على القيادة الإسرائيلية عقب مجىء مناحيم بيجين إلى السلطة.

الاشتراكية الصهيونية كانت تنظر إلى السياسة الخارجية على أنها علاقة بين الأهداف والأدوات، فى علاقة منطقية ثابتة، وبعبارة أخرى فهو يختار الأهداف لتتوافق مع الأدوات المتاحة، الصهيونية التصحيحية لا تؤمن بذلك، بل ترى ضرورة أن الأهداف تفترض وقد تحددت دون اعتبار بالإطار الدولى أن تسعى لتغيير ذلك الإطار الدولى تبعًا لتلك الأهداف وليس العكس، إنها يجب أن تكون قادرة ـ أى الصهيونية ـ على أن تغير من الإطار الدولى ولو فى لحظة معينة وبالديناميكية الكافية ليتقبل تلك الأهداف.

سادسًا: جابوتنسكى كان مقتنعًا بأن العالم العربى أكذوبة، وأن منطقة الشرق الأوسط لا يوجد بها سوى عالم إسلامى، أما القومية العربية فهى اختراع خلقه الوهم الغربى، ومن ثم فإن إطار الصراع ليس هو الصدام العربى الإسرائيلى ولكنه التصادم الإسلامى الشرقى مع الصهيونية السياسية الغربية، فى داخل هذا الإطار فقط يتحدد هذا الصراع، وهنا يجب أن نتذكر أن جابوتنسكى عاش فى الدولة العثمانية وقبل تصفيتها مع الحرب العالمية الأولى، وترسبت فى ذهنه حقيقة ثابتة وهى أن طيلة الفترة ـ المؤتمر الصهيونى الأول حتى تفجير الإمبراطورية العثمانية ورغم الضعف الحقيقى للدولة العثمانية ـ فإنه لم تجرؤ أى قوة دولية على أن تتعامل بجدية مع أهداف الصهيونية.

سابعًا: ولكنه من جانب آخر كان يؤمن بسيادة أى حضارة أخرى على الحضارة الإسلامية، وصل به الأمر إلى نقد كل اتجاه يهودى، كان أساسه النظرة الرومانسية إلى الحضارة الإسلامية، ورغم تسليمه بأن العالم الإسلامى كان يمثل كيانًا حضاريًا واحدًا إلا أنه كان يقع فى مرتبة دنيا بالنسبة للحضارة الغربية، هناك مناقشة فقهية حول مصدر هذا التخلف فى فكرة جابوتنسكى: هل هو نتيجة لخصائص عنصرية تنتهى بسيادة العنصر الأبيض؟ أم أنه مرتبط بمستوى التقدم الاقتصادى والاجتماعى للمنطقة؟ ولكن الأمر الذى يعنينا أن هذا التصور قاد إلى نتيجتين:

الأولى: أن الصراع فى المنطقة هو الصراع بين إسلام متخلف ويهودية متقدمة، وليس صراعًا بين قومية عربية وأخرى صهيونية.

الثانية: أن هذا الصراع حتمى لا يمكن التهرب منه.

ثامنًا: وتصل قمة فلسفة جابوتنسكى مع أحد أتباعه «ليفنيه» الذى وقف فى صراع فكرى عنيف مع وصف إسرائيل بأنها امتداد للحضارة الغربية، إن جوهر التاريخ الأوروبى هو استئصال اليهود فترة الحكم النازى، هذه هو حقيقة التاريخ، واستئصال اليهود من جانب قادة النازى سهلة، فى واقع الأمر نوع من التواطؤ من جانب جميع الأمم الأوروبية وبغض النظر عن نظامهم السياسى، وهو يصل به الأمر إلى القول بأن فترة التعاطف على اليهود التى ميزت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ليست إلا لمحة من الزمن ولا يوجد ما يمنع من تصور فترة قادمة أكثر تعصبًا ضد السامية.

هذه هى خلاصة سريعة وموجزة لفكر جابوتنسكى وتلاميذه، هذا الفكر الذى ظل بعيدًا عن السلطة فى إسرائيل خلال قرابة ثلاثين عامًا، وهو الذى حمله معه إلى موقع القيادة مناحيم بيجين مع وصول كتلة ليكود إلى السلطة وهو الذى يسيطر اليوم على القيادة الإسرائيلية.

فما هى العناصر الواضحة فى هذا الفكر والمسيطرة اليوم على الإدراك القيادى الإسرائيلى بالتعامل فى منطقة الشرق الأوسط، وبصفة خاصة مع نظرية السلام كمحور للتعامل بين مصر وإسرائيل؟

تطور مفاهيم جابوتنسكى والقناعة الجديدة فى القيادة الإسرائيلية المعاصرة.

مع مجىء ليكود إلى الحكم واختفاء حزب العمل من السلطة حدث تطور خطير فى القناعة القيادية وفى مفهوم ممارسة السلطة فى أبعاد ثلاثة.

الأول: عملية تهذيب المفاهيم التى سادت فى إسرائيل خلال قرابة ثلاثين عامًا من حيث التعامل مع مشاكل إسرائيل السياسية فى الداخل وتبويب وظيفتها فى الخارج سواء كان ذلك بالنسبة للأبعاد الإقليمية لتلك الوظيفة أو لعلاقة إسرائيل بالولايات المتحدة.

الثانى: هذا التهذيب لم يقتصر على أن يقدم لنا فلسفة جديدة، بل هى أقرب إلى الواقع الاجتماعى الذى أصاب المجتمع الإسرائيلى خطورة هذه الفلسفة الجديدة، إنها بلورت حقيقة القوى الجديدة بحيث يمكن القول بأنها تعبر بصدق عن حقيقة تلك القوى التى تسود الواقع الإسرائيلى وهى لذلك قد التصقت بهذا المجتمع بحيث يمكن

القول بأنه حتى لو حدث ضعف أو اختفى حزب حيروت وكتلة ليكود، فإن المفاهيم الجديدة سوف تظل سائدة إلى فترة غير قصيرة.

الثالث: إن محور هذا التطور الحقيقى النظرة إلى إسرائيل على أنها دولة شرق أوسطية، وأنها تنتمى إلى هذه المنطقة عضويّا وحضاريّا بما يعطيها من حقوق معينة ويضفى عليها شرعية معينة فيما يتعلق بوظيفة تلك الدولة فى المنطقة.

فلنتابع هذه العناصر الثلاثة بشىء من التفصيل

المفاهيم الجديدة التى بلورها حزب حيروت فى القناعة القيادية الإسرائيلية.

هذا الإدراك والذى يستمد مصادره من مفاهيم جابوتنسكى، والتى سبق ولخصناها يستند بصفة خاصة إلى عنصرين أساسيين: «الأول» أن إسرائيل دولة شرق أوسطية، «والثانى» القناعة بأن الدين هو العنصر الأساسى، والمحور الأول والوحيد فى تنظيم إطار التعامل مع منطقة الشرق الأوسط، كلاهما ـ أى هذان العنصران ـ يكمل الآخر، ومن هذا يتكون النسيج العام للسياسة الإسرائيلية الجديدة.

فلنتابع هذه العناصر قبل أن نحلل نتائجها:

(أ) أول هذه العناصر: أن إسرائيل دولة شرق أوسطية، هذا المفهوم يملك مصادر بعيدة، فمنذ الكلمات الموجعة التى وجهها ديجول إلى بن جوريون قبل حرب الأيام الستة، بدأ التفكير الجدى فى كيف تستطيع إسرائيل أن تندمج فى المنطقة لتصير وجودًا طبيعيّا متجانسًا مع دول المنطقة، وجاءت حرب ١٩٦٧، وانتصاراتها العنيفة لتمنع ذلك التطور، لقد خرجت إسرائيل دولة منتصرة يملؤها الغرور، ولكن مع مجىء ليكود إلى السلطة لم تعد نظرة إسرائيل إلى دول الشرق الأوسط على أنها دول الجوار الجغرافى، إنها أكثر من ذلك، فإسرائيل دولة تنتمى إلى هذه المنطقة تاريخيّا وحضاريّا فضلا عن ذلك الانتماء المكانى، أليست إسرائيل من حيث التاريخ إحدى دول المنطقة قبل أن تظهر فى هذه المنطقة الدولة الإسلامية الكبرى؟ المنطقة هى أرض الأديان حيث نزلت فيها الأديان الكبرى اليهودية، والمسيحية، والإسلام وتطورت فى منطقة الشرق الأوسط، وإسرائيل هى أداة الدين اليهودى وهل يستطيع أحد أن يلغى قصة التاريخ؟ وهى لذلك جزء من تاريخ هذه المنطقة الحضارى، الشعور بالانتماء الحضارى ظل

يسيطر على المجتمع اليهودى فى جميع مراحل تاريخه، بل ووجدت عناصر يهودية ظلت فى تلك المنطقة وهى تحافظ على ذلك الانتماء الروحى تدفع ضريبة ذلك بالدم والتضحية.

هذه الطبيعة الشرق أوسطية تضفى على إسرائيل طبيعة معينة، وتفرض عليها وظيفة حضارية معينة وترتب لها أيضًا حقوقًا معينة فى مواجهة دول وشعوب المنطقة أقلها حق القيادة والتوجيه، السياسة الخارجية الإسرائيلية يجب أن تنبع من نظام القيم الجديد الذى ينطلق ويتأسس على هذا المفهوم.

(ب) العنصر الثانى: أن محور التعامل فى المنطقة، ومع المنطقة هو العنصر الدينى، ليس فقط بمعنى أن إسرائيل هى الدولة التى تحمل عبء الوظيفة السياسية لليهودية، بل كذلك بمعنى أن يسود هذه المنطقة هو الطبيعة الإسلامية للتصور الدينى والسياسى نتائج ذلك عديدة نذكرها بإيجاز لأنها تخرج عن نطاق موضوعنا الآن نسبيًا:

أولا: أرض الأمة العربية ليست إلا وهما خلفه الإدراك الخاطئ من الجانب الأوروبى.

ثانيًا: ورقة الإسلام هى العنصر الأساسى فى عملية تفتيت المنطقة، يجب أن تستغل إلى أقصى حد، مرد ذلك إلى القناعة بأن الدين متغير أساسى فى الوجود السياسى، ومن ثم يجب توظيفه كمنطلق يسمح بالتسلل إلى المنطقة وذلك بأسلوب مزدوج: من جانب تشويه التراث الإسلامى، ومن جانب آخر خلق القناعة بعملية التواصل الحضارى بين ذلك التراث وأصوله اليهودية، خلق الجسور بعبارة أخرى بين التراث اليهودى وما يسمى بالحضارة الإسلامية يصير سلاحًا ذا حدين: فهو أداة لخلق الترابط وهو من جانب آخر وسيلة لإثبات فضل اليهودية على الإسلام، بل ولا يتردد البعض فى الحديث عن المصادر اليهودية للقرآن.

ثالثًا: ويرتفع هذا إلى القمة عندما يطلق علينا أنصار هذا التصور ما يسمونه حوار الحضارات حيث يجب أن يتقابل الفكر الكاثوليكى والفكر الإسلامى ويتوسطهما الفكر اليهودى، الذى هو (وهو وحده) مصدر مباشر لكلا الاتجاهين، بل هو لا يقتصر على أن يطلق هذه الفكرة كبالون اختبار بل ينقلها إلى مشروع سياسى يرتبط بالقدس

وينجح فى خلق القناعة بها سواء لدى الرئيس السادات وسواء القيادات المسئولة فى الفاتيكان.

سياسة إسرائيل الخارجية الجديدة ومقوماتها

من هذا المنطلق تتبلور سياسة إسرائيل الخارجية التى بدأنا نعاصرها منذ عام ١٩٧٧ وظلت فى عملية تطور ثابتة لتتبلور حول عناصر أساسية مع عام ١٩٨٢ وبصفة خاصة مع حرب لبنان.

ما هى عناصر هذه السياسة؟ تقوم على العديد من المبادئ، ولكن تعنينا من هذه الأصول عناصر أساسية، تسمح لنا بفهم وظيفة إسرائيل الإقليمية فى هذا النطاق:

أولا: إن إسرائيل تملك نظامًا جديدًا للقيم؛ يجب أن يسيطر على سياستها الخارجية، وأن تنبع منه جميع تحركاتها وسوف نعود إلى ذلك تفصيلا.

ثانيًا: العالم العربى على استعداد لتقبل الوجود الإسرائيلى فى المنطقة، العالم العربى لم يكره اليهود ولم يعرف مفهوم التعصب العنصرى فى مواجهة الشعب اليهودى، الذى هو مفهوم أوروبى، لقد صدر له من خلال مفاهيم التعامل السياسى فى القرن العشرين، وهو اليوم فى حاجة لأن يتعلم كيف يتقبل الوجود الإسرائيلى، وبصفة خاصة قيادة المنطقة من جانب الدولة اليهودية.

ثالثًا: التعامل مع المنطقة العربية يجب أن ينبع من مفهوم القوة والعنف، ليس فقط لأن هذه المنطقة لا تفهم سوى هذه اللغة، وليس فقط لأن هذا هو أسلوب بناء الشعوب القومية، بل إن الحديث عن السلام لا بد وأن يضعف الموقف اليهودى، يجب على الجانب اليهودى أن يشجع الجانب العربى على التصلب الذى تقابله الهزائم العسكرية؛ لأن العرب لن يتقبلوا الموقف إلا إذا فقدوا الأمل فى القدرة على التصدى.

رابعًا: الزعم بأن إيران ضد إسرائيل، ليس إلا لغة غوغائية آن الأوان لإخضاعها لنظرة نقدية حقيقية: العلاقة بين إيران واليهود هى علاقات تاريخية، والصداقة بين الشعبين رغم أنها اجتازت مراحل متباينة إلا أنها تاريخية وقديمة، هناك ترابط حضارى بين الشعبين الفارسى واليهودى، يجب أن يعود إلى الحياة حتى ولو من

منطلقات جديدة، وبمنطق جديد، هذه العلاقة أيضًا يجب أن تمتد إلى تركيا، بحيث يتم خلق مثلث يحصر فى داخله منطقة الشرق الأوسط لصالح إسرائيل.

خامسًا: كذلك فإن العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل، ليس محورها حاجة إسرائيل إلى الولايات المتحدة وإنما هو حاجة الولايات المتحدة إلى إسرائيل، يجب من ثم أن يوجد تحالف بين الدولتين على قدم المساواة، بحيث إن علاقة تل أبيب بواشنطن يجب أن تسودها الندية، وهكذا كل التطور نحو التعاون الإستراتيجى ثم التحالف الحقيقى بين الدولتين، الذى تم فى إطار هذه القناعة وهو أمر يبدو واضحًا منذ أن كان «مناحيم بيجين» يجلس فى مقعد القيادة فى الجانب الإسرائيلى «وهيجش» لا يزال مسئولا عن السياسة الخارجية الأمريكية.

هذه المفاهيم الخمسة هى التى تسيطر على السياسة الخارجية الإسرائيلية، بقى أن نفصل فى البعض منها وبصفة خاصة فيما يتعلق بثلاثة أبعاد.

(أ) القيم الجديدة التى تسود صانع السياسة الخارجية الإسرائيلية.

(ب) علاقة هذه القيم بالوظيفة الإقليمية للدولة اليهودية.

(جـ) أثر ذلك فى التعامل مع مصر خلال الحقبة القادمة.

نظرية القيم الجديدة والسياسة الإسرائيلية

نستطيع أن نحدد هذه القيم بأربع مثاليات متتابعة تدريجيًا.

أولا: إسرائيل هى دولة دينية تدافع عن القيم الأصيلة للدين اليهودى.

ثانيًا: إسرائيل تؤدى وظيفة حضارية أوسع وأشمل من مجرد التعبير عن العلاقات بين اليهود والدولة العبرية.

ثالثًا: إسرائيل هى قائدة منطقة الشرق الأوسط، تتحدث باسمها ومن حقها أن تسيطر على تلك المنطقة.

رابعًا: إنشاء إسرائيل الكبرى عنصر آخر، ولكنه مستقل عن وظيفة الهيمنة والسيادة على المنطقة، كل من هذه العناصر فى حاجة إلى تفصيل.

إسرائيل ليست مجرد دولة لتجميع اليهود، ولكنها دولة تحمل راية القيم الدينية اليهودية، إنها الدولة اليهودية، حيث القيم التقليدية لهذا الدين تجد مكانها الحقيقى وبحيث تستطيع هذه الديانة أن تعود لتمارس وظيفتها التاريخية، وهى لذلك ليست فقط دولة المجتمع اليهودى، إنها أكثر من ذلك، إنها الدولة التى يجب أن تؤدى وظيفة القيادة الحضارية، المجتمع اليهودى الذى تقيمه هذه الدولة ليس مجرد الشعب الذى ظلم وضحى به ودفع ضريبة التطور نحو الكمال الروحى، إنه مقدمة الكتيبة الحضارية التى آن لها أن تقود الإنسانية لتهدى، وتوصل نظرة جديدة فى الحياة والوجود، إن حق العذاب يؤهل هذا الشعب لأداء هذه الوظيفة، والاختيار الإلهى يعطى دولة إسرائيل حقوقًا معينة ويفسر ليس فقط حقها فى السيادة على المنطقة، بل وحقها فى أن تتحدث باسم المنطقة، إن واجبها أن تنظر إلى شعوب المنطقة على أنها تجمعات متخلفة، وهى وحدها التى سوف تخرجهم من الجهالة.

وهنا تبرز بوضوح كيف أن وظيفة مصر الإقليمية يجب أن تختفى لصالح وظيفة إسرائيل الإقليمية، ولكن لا يوجد ما يمنع أنه خلال مرحلة أولى يمكن توظيف مصر إلى خلق التسرب فى داخل المنطقة، وعقب أن يتم ذلك تستأصل تلك الأداة ويكون التعامل مباشرة.

القوى المساندة والمؤيدة للسياسة الإسرائيلية الجديدة

على أننا لا يجوز لنا أن نتصور أن هذه السياسة الجديدة محورها فقط الفكر التصحيحى المحافظ، إنها تعبير عن واقع اجتماعى واقتصادى يؤكد أنه حتى عقب اختفاء ليكود، أو رغم مشاركته للماباى فى الممارسة السياسية، فإن هذه السياسة سوف تظل هى المحور الحقيقى للسياسة الإقليمية لإسرائيل.

فمن الناحية الاجتماعية أو بعبارة أدق من حيث التطور الداخلى فى المجتمع الإسرائيلى، هناك توافق تام بين هذه السياسة والواقع المعاصر الإسرائيلى، الواقع المعاصر الإسرائيلى محوره هو الزيادة الواضحة فى عدد السكان الذين ينتمون إلى الأصل الشرقى، وهؤلاء يتميزون بالتعصب العنيف من جانب، وتدعيم السلوك

الاستفزازى المبالغ فيه فى مواجهة العرب، فالتحليلات الميدانية تؤكد أن اليهود من أصل غربى، بل والملاحظ أن هناك تقاربًا حقيقيًا بين اليهود الشرقيين من جانب اليهود المتدينين، حتى لو كانوا من أصل غربى، ثم جيل الصابرا وهذا يفصح عن حقيقة التوجه السائد.

ويلاحظ على هذا التوجه هو التشدد فى التعامل مع العرب، وتفضيل أساليب العنف وعدم التحرك إزاء مواجهات الإرهاب التى تمارسها السلطات الحكومية فى مواجهة السكان الأصليين، موقفهم لم يتغير ولم يؤثر فى تمسكهم بالتشدد فى التعامل سواء حرب لبنان أو مذابح المعسكرات، بل وحتى عقب نشر تقرير كاهان، أن الذى حدث من خلاف حول الرضاء القومى مرده فقط أمران:

(أ) من جانب عدم تحقيق الأهداف التى وضعت فى حرب لبنان، ومن جانب آخر الخديعة التى استخدمت فى تقديم المعلومات إلى مجلس الوزراء.

(ب) الناحية الاقتصادية بدورها ذات موضع هام، إسرائيل تعلم أنها فى حاجة فى نهاية هذا العقد لتحتفظ بمستواها من حيث الرفاهية الذى حددته لنفسها، وهو مستوى دول جنوب أوروبا الفقيرة أى اليونان وإسبانيا، إلى معونة أمريكية تصل إلى حوالى ثلاثة وثلاثين بليونا من الدولارات والاقتصاد الأمريكى لا يستطيع أن يقدم هذه المساندة؟ ولذلك على إسرائيل أن تكتشف لها مصادر أخرى.

التوجه الاقتصادى لتغطية هذا العجز فى الأمد القريب نسبيًا يتجه إلى أربعة مصادر:

أولا: السوق الاستهلاكى المصرى ليستوعبه ويستغل إمكانياته.

ثانيًا: سوق منطقة الشرق الأوسط الاستثمارى حيث العوائد البترولية لا بد وأن تثير شهية المخطط الصهيونى.

ثالثًا: السوق الدولى للسلاح، وفعلا بدأت إسرائيل بهذا الخصوص منذ فترة غير قصيرة جهدها وبصفة خاصة فى الصين، التى بلغ حجم تعاملها حتى نهاية العام قبل الماضى أكثر من بليونى دولار، ثم السوق الإيرانى، دون الحديث عن أسواق أخرى أقل أهمية.

رابعًا: ثم السوق الدولى للخدمات وبصفة خاصة فى دول العالم الثالث سواء فى إفريقيا أو فى أمريكا اللاتينية.

كل هذا يقود إلى طرح السؤال: ما هى عناصر وما هو مستقبل وظيفة إسرائيل الدولة؟ تأسيسًا على وجودها فى قلب منطقة الشرق الأوسط؟

هنا يبرز بشكل واضح كيف لا بد وأن يكون المنطلق الأول هو شل وظيفة مصر الإقليمية والدولية وانتزاعها لصالح إسرائيل... والحديث ذو شجون.

* * *

(٣)

هل تنجح إسرائيل فى وراثة دور مصر القيادى لمنطقة الشرق الأوسط..؟

«هل حقًا سيطرت الغشاوة على عيوننا وقلوبنا؟ ولم نعد نستطيع أن نرى ما يحدث حولنا؟ بل وقد أصبحنا عاجزين على أن نكشف ما هو تحت أقدامنا؟ وإلى متى سوف نظل كذلك؟ الأبواق من حولنا تزداد قوة، والمزيدات أضحت على أشدها، والكذب بلا حياء ولا خجل، ولم يعد أحد يؤمن لا بمبدأ التخصص ولا بمعنى الخبرة، هل هذه قيادة؟ رغم ذلك فإن الأمل لم نفقده ولن نفقده، مرت بنا فى تاريخنا الطويل أسوأ من هذه الفترة واستطاعت أمتنا بقدرتها وثباتها أن تتخطاها، بصبر وهدوء، وفى تاريخ كل شعب وجدت لحظات الضعف والهوان والانحدار، وقوة الشعب الحقيقية تبرز فى تلك اللحظات، فإذا به يخلع عن نفسه ذلك الرداء من الوصولية والتفاهة، وينطلق فى طريقه الذى خصته به العناية الربانية، مندفعًا فى قوته صارخًا فى الأمة، الشعوب القوية وحيدة فى صراعها لا صديق لها، والعملاق أيضًا له عثراته ولكن ويل لمن يتعامل معه عندما يكتشف هذا العملاق ليس فقط قوته الحقيقية بل ما أوقع فيه من خيانة وخديعة.

أعداء مصر عديدون، قد يتوافقون وقد يتفقون، ولكنهم دائمًا يجدون أنفسهم فى خندق واحد، وكل ما يتمنون هو أن يصوبوا سهامهم ضد أم الحضارة، دولة التاريخ التى خصها الإله بوظيفة معينة، ليس هذا بجديد، فالكلاب المسعورة التى هجمت على مصر عديدة، وعلى مر التاريخ، ولكن الجديد هو أن هذه الكلاب ولأول مرة فى تاريخ مصر تتعدد وتتنوع كنتيجة مباشرة لتعدد وظائف مصر فى عالمنا المعاصر.

الكلاب التى تسعى لأن تنهش فى جسد مصر عديدة، ولكن ما هو أخطر من ذلك أن مصر الخالدة تقف عاجزة وصامتة لا تحاول أن تدافع عن نفسها، فإلى متى؟ وإلى متى تظل نائمة؟ سؤال نتركه جانبًا ولو مؤقتًا ونعود إلى هذه الكلاب نبحث عن أسباب نباحها.

لا نريد أن ندخل فى تفاصيل عملية مرهقة ولكن علينا أن نفهم منذ البداية أن مصر تملك وظائف ثلاث، يجب ألا نخلط بينها:

أولا: وظيفة حضارية.

ثانيًا: وظيفة إقليمية.

ثالثًا: وظيفة دولية.

«كل من هذه الوظائف مستقلة عن الأخرى تملك دلالتها المتميزة وإن كانت هذه الوظائف قد تتداخل وتتعانق فى بعض المواقف وهى على كل تؤثر وتتأثر بالأخرى.

(أ) الوظيفة الحضارية: هى أقدم هذه الوظائف، تقودنا هذه الوظيفة إلى أقدم مراحل التاريخ، مصر هى التى قدمت لليونان حضارتها الفكرية ومصر هى التى أقامت صرح الحضارة العظمى فى وادى النيل، بينما كان الإنسان فى جميع بقاع الأرض يعيش فى الجحور، كان فى مصر يشيد أعظم حضارة شهدها الإنسان: يبنى الأهرامات، ويشق الطرق، ويكتشف بقدراته الذاتية الإله الواحد ليتجه إليه بكل قواه، معلنًا إيمانه وخضوعه، فى أرضه زرعت أعظم الحضارات وأقدسها، لا تزال حتى اليوم، نسعى إلى اكتشاف أسرارها لنقف عاجزين إلا عن بعض القشور التى دفنتها الرمال، مصر الحضارية لم تكن عملا فرديًا ولكنها كانت جهدًا جماعيًا، ارتفع وتألق دون منافس.

(ب) الوظيفة الإقليمية: لا تبدو واضحة صريحة إلا عقب سقوط بغداد أمام جحافل «هولاكو» منذ مقتل «كليوباترا» انطوت مصر على نفسها، وظيفتها الحضارية تقلصت حتى عدة قرون عقب دخول الإسلام، ورغم أنها بدأت منذ القرن الثالث الهجرى تستعيد نفسها، إلا أنها لم تبرز واضحة إلا عقب أن غزا أرض الرافدين همج المغول، هاجر علماء العراق إلى مصر التى احتضنتهم وشعرت بأن واجبها أن تحمى

كنوز العرب، ولكن ما هو أهم من ذلك؟ أن مصر كان عليها أن تقف إزاء التسرب إلى المنطقة، بدأت تبرز واضحة الوظيفة الإقليمية وقد اختلطت بالوظيفة الحضارية، وذكر الكاتب كلامًا مهما جدًا فقال: «الفترة الثالثة فى تاريخ مصر، تبدأ حقيقة بهذا الغزو الذى تبعته وأعقبته معركة عين جالوت، منذ تلك الفترة ظهرت وتبلورت الوظيفة الإقليمية لمصر: بمعنى أنه على آلاف الكيلومترات شرقًا وغربًا، جنوبًا بل وإلى حد معين شمالا، لا توجد قوة أخرى تستطيع أن تؤدى ما يجب أن تقوم به مصر، واجب مصر هو أن تحمى هذه المنطقة أن تمنع أى قوة أخرى خارجية من أن تتسلل إليه.

لا توجد أى قوة فى هذه الامتداد هيئت لها القدرات التى هيئت لمصر فى ذلك الاتساع المكانى الذى تعودنا أن نحدده بالأرض العربية ولكنه ليس إلا دائرة تعقبها دوائر أخرى: فهناك الدائرة العربية، لتحيط بها الدائرة الإسلامية، ولترتبط بها دائرة البحر المتوسط الشرقى، ولتتبعها الدائرة الإفريقية، هذه الدوائر المختلفة، بل والمستقلة لا يجمعها سوى أمر واحد وهو أن مصر الخالدة تتوسطها، وقد هيأت لها القدرة على أن توجه وتتحدث، توجه هذا المتسع الإقليمى، وتتحدث باسم هذه المنطقة كلا العنصرين، يعنيان واجب مصر فى أن تكتل هذا الكيان الإقليمى فى إرادة واحدة، تعمل لصالح أبناء هذه المنطقة فقط، إنها وظيفة الدولة القائد، حيث تكتل القوى ضد أى محاولة للتسرب إلى المنطقة، وظيفة مصر بعبارة أخرى أيضًا الدفاع عن المنطقة ضد أى تدخل خارجى.

خضعت المنطقة لخمسة اعتداءات متتالية، نجحت مصر فى صد ثلاثة منها، وأخفقت فى التعامل مع أحدها ولا تزال بين النجاح والإخفاق فى آخرها، الأول هو المغول القادمون من وسط آسيا والثانى تمثل فى الموجات الصليبية الهابطة من أوروبا الكاثوليكية، فى كليهما استطاعت مصر أن تقف بصلابة لتطرد المعتدى، إن الغزو الأوروبى الجديد ما بين فرنسا وبريطانيا وروسيا لم يسمح باكتمال التطور، وقبل أن تعلن كلمة النجاح كانت العدة قد اتخذت للغزوة الخامسة متمثلة بالصهيونية الأوروبية، ورغم أن مصر نجحت فى طرد فرنسا وبريطانيا لكن حركة هرتزل عهد باستمرارية وظيفة شل الدور الإقليمى لمصر التاريخية.

(ج) الوظيفة الدولية: برزت فى صورة واضحة مع القرن العشرين وبصفة خاصة مع الحرب العالمية الثانية، جوهر هذه الوظيفة إيقاف القوى العظمى من الاستيلاء على مصر وتوظيفها لصالحها، المنطقة حبتها الطبيعة بثلاث مزايا: الموقع الإستراتيجى، والثروات الطبيعية، فضلا عن أنها موضع الأديان المقدسة، فى جميع مراحل التاريخ لم ترتفع قوة معينة إلا واتجهت إلى مصر تسعى للاستحواذ عليها؛ لأنه فقط منذ تلك اللحظة تستطيع أن تزعم تلك القوة بأنها أضحت عالمية، وذلك منذ أقدم العصور.

الإسكندر الأكبر أعقبته روما، لم يستطيع قيصر روما أن يصف نفسه بأنه «الأمير» أو الحاكم الأعلى أو الرأس، ومن ثم يزعم بأن إرادته هى وحدها محور «السلام الرومانى» إلا عقب أن استأصل القدرة على التحدى فى الإسكندرية، والكرنك، فى الأولى بمقتل كليوباترا وفى الثانية بهدم أعظم جامعة عرفتها العصور القديمة.

هذه الوظائف الثلاث والتى رغم اختلاطها يجب التمييز بينها بوضوح، لو حاولنا فهم حقيقة السياسة الإسرائيلية، وكيف أنها لا بد وأن تصطدم بمصر، فى قرقعة للسلاح تضح حدّا لوجود إحداهما كمركز للثقل الدولى والإقليمى فى المنطقة».

وما هى أبعاد المستقبل: «إسرائيل وهى تسعى لأن تؤدى وظيفة دولية وإقليمية فى المنطقة، وانطلاقًا من المنطقة لا تستطيع أن تنسى مجموعة من الحقائق:

الحقيقة الأولى: أنه ما دامت مصر قوية فلن تسمح لدولة أخرى أن تؤدى أيّا من تلك الوظائف، عقب خروج مصر من الصف العربى عشنا قرابة عشرة أعوام والصراع بين الدول العربية على أشده فى سبيل سرقة وظيفة مصر بهذا الخصوص.

حاولت العراق وسرعان ما حسمت أمرها، ثم جاء دور سوريا وراحت تغالط نفسها فى أكثر من موقف واحد، ولا أزال أذكر الحوار الساخن الذى دار مع الوزير السورى فى مؤتمر بطرابلس، منذ عدة أعوام كذلك السعودية تصورت أنها قادرة على القيام بهذا الدور، حتى ليبيا فى لحظة معينة عاشت أحلام اليقظة وظنت أنها تستطيع أن ترث دور مصر.

الحقيقة الثانية: أن إسرائيل دولة دخيلة، ومهما وصفت نفسها بأنها دولة شرق أوسطية، فهى من حيث طبيعتها وتكوينها ليست كذلك، إنها تصلح لأن تؤدى وظيفة

الدولة الحارس ولكنها لا تستطيع أن تقوم بوظيفة الدولة القائد، هى قادرة على أن تخدم مصالح دولة عظمى، ولكنها لا تستطيع أن تخدم مصالح المنطقة.

الحقيقة الثالثة: إن إسرائيل لا تملك المقومات الذاتية التى تؤهلها لأن تؤدى وظيفة دولية أو إقليمية، وهى لذلك لا بد وأن تسعى إلى تغيير الإطار الإقليمى لتصير قادرة على أداء تلك الوظيفة، إنها سوف تظل مصطنعة ولا بد وأن تنتهى مهما طال بها الزمن إلى الفشل.

إذا أردنا أن نفهم ذلك فلنعد إلى التاريخ نستمع إلى تعاليمه فى عناصر واضحة من حيث التعامل:

(أ) العنصر الأول: وهو أن أرض فلسطين لم تكن فى أى مرحلة من مراحل التاريخ مصدرًا للقلاقل وللمشاكل، كانت على عكس من ذلك، مسرحًا للقوى الأجنبية، لم يحدث فى تاريخ الإنسانية أن صدرت تلك المنطقة الاضطرابات، إنها فقط معبر إما للكلاب القادمة من الشمال والشرق متجهة نحو الدلتا ووادى النيل بخيراتها، وإما لفراعنة مصر وهم يخرجون فاتحين للمنطقة المحيطة بهم.

(ب) العنصر الثانى: إن قادة مصر العظام لم يقبلوا أو يسمحوا لأى قوة ضاربة بالتواجد على حدودهم الشرقية فى المنطقة الممتدة من غزة جنوبًا حتى جبال طوروس شمالا، خير من عبر عن ذلك كان رمسيس الثانى، وكذلك تحتمس، الذى عرف بحملاته السنوية لتنظيف وتمشيط هذه المنطقة، كان يعلم بأن مصر لا يجوز الدفاع عنها فى سيناء، وكان يؤمن بأن من وضع قدمه فى منطقة الإسكندرونة فقد استطاع بسهولة أن يصل إلى أرض الإسكندرية.

(جـ) العنصر الثالث: ومفاده، أنه طالما لم توجد وحدة بين شرق سيناء وغربها فإن أى دولة قوية توجد فى جنوب أرض الشام، حتى لو كانت عربية يجب أن تستأصل بلا رحمة.

هذه المقدمة ضرورية لفهم لماذا تعرف إسرائيل جيدًا أنها لا بد وأن تحارب مصر، وأن القاهرة لا بد وأن تقف من تل أبيب كالصخرة التى تمنعها من تحقيق أهدافها، وهى لذلك تعمل جاهدة على إعادة بناء الإطار الفكرى للتعامل مع مفهوم الوظيفة الإقليمية والدولية.

كيف ذلك؟

فى الإدراك الإسرائيلى هى تستخدم موقعها؛ لتؤدى وظيفة دولية، تقودها هذه الوظيفة الدولية لتدعيم وظيفتها الإقليمية، وهى فى نفس الوقت من خلال تدعيم وظيفتها الإقليمية تزعم بأنها قادرة على أن تؤدى وظيفة دولية، وهذه هى الديالكتيكية الخفية التى تسيطر على الفهم الإسرائيلى للتعامل فى المنطقة، ومن خلال المنطقة وظيفة دولية تقود إلى الوظيفة الإقليمية، ثم وظيفة إقليمية تصير منطلقًا للوظيفة الدولية.

«الوظيفة الدولية فى الإدراك الصهيونى تعنى تمكين القوى العظمى من تحقيق أهدافها فى منطقة الشرق الأوسط، وهكذا تصير وظيفة إسرائيل الدولية وقد تحددت بهذا المعنى: كيف تمكن القوى العظمى أو إحداهما من أن تحقق أهدافها فى المنطقة.

القوى العظمى بإجمال سريع تتمركز حول ثلاث بالترتيب التالى:

أولا: القوة الأمريكية والتى ترتبط بها الشركات الكبرى المتعددة الجنسية.

ثانيًا: القوة السوفييتية ويستتر خلفها اليسار الدولى.

ثالثًا: القوة الأوروبية والتى لا تزال تخضع لتوجهاتها بعض دول العالم الثالث.

إسرائيل تحاول أن تخدم القوى الثلاث، ولكن عند الضرورة، وعندما يتعين عليها الاختيار، فأمامها فقط كحصان تمتطيه وتنطلق من خلاله فى تدعيم تلك الوظيفة الدولية واشنطن وما يحيط بها من قوى أخرى وهى ليست قليلة.

ما هى أهداف الولايات المتحدة من سياستها فى المنطقة؟ وكيف تستطيع إسرائيل أن تخدم تلك السياسة الأمريكية فى المنطقة؟

الأهداف واضحة بل ومقننة، عقب فترة تردد معينة نستطيع أن نحدد هذ الأهداف وبالترتيب التالى:

أولا: فرض وضع التخلف على المنطقة، سواء كنتيجة لعدم الاستقرار اللازم لبناء مشروعات إنمائية حقيقية، سواء لتوجيه كل إمكانيات المنطقة للاستنزاف فى عمليات شراء للسلاح.

ثانيًا: منع المنطقة من الوحدة الحقيقية، أو بعبارة أخرى تمزيق المنطقة بتحويلها إلى كيانات هشة ومتصارعة.

ثالثًا: أن تتولى هذه المنطقة عملية المساندة الثابتة للقوات العسكرية الأمريكية سواء بتخزين السلاح أو بتحويل أرضها أى أرض إسرائيل لصالح القوات الأمريكية التى قد تدعى إلى العمل فى هذه المنطقة.

رابعًا: توظيف موقعها لخدمة الإستراتيچية الأمريكية فى بعدين: «الأول» أن تكون مقدمة لإيقاف نزول الأسطول الروسى إلى البحر الأبيض المتوسط، «والثانى» أن تتولى عملية إيقاف الفيضان العسكرى لحلف وارسو فى وسط أوروبا.

هذه هى الأهداف التى سوف تتولى تحقيقها إسرائيل لصالح الولايات المتحدة ودبلوماسية واشنطن، وليكتمل الإطار لا بد وأن نضيف بالنسبة لمصر على وجه التحديد هدفين آخرين:

(أ) فرض وضع التبعية لمصر إزاء الولايات المتحدة.

(ب) تدعيم حالة الخوف التى تسود القيادات المصرية إزاء أى تحرك فيه شىء من الاستقلالية فى مواجهة واشنطن.

إن واشنطن لا تخاف فى المنطقة حقيقة إلا من مصر، ولا تعمل حسابًا إلا للقدرة المصرية لو تماسكت وقررت النزال مع الولايات المتحدة، وسوف نرى فى موضع آخر الوثائق الصريحة، وقد عهد إلى إسرائيل بعملية التحزيم والتخريب، والضبط وفرض الانصياع، كيف؟ وهل نجحت فى ذلك؟ أسئلة أخرى نتركها جانبًا مؤقتًا لنعود إليها بالتفصيل الكامل فى موضع آخر، نقتصر مؤقتًا على تفصيل الناحية «الرابعة» والمتعلقة بتوظيف إسرائيل لخدمة الإستراتيچية الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط ومن خلال تلك المنطقة.

إسرائيل والاستراتيجية الأمريكية فى الشرق الأوسط

السياسة الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط ظلت حتى وقت قريب مترددة: وهى رغم ذلك ناجحة، لا نريد أن نتتبع مساراتها منذ قدر لها أن تنزل بوزنها كقوة عظمى

فى المنطقة، ولكن الذى يعنينا فى هذا العرض هو كيف تبلورت هذه السياسة خلال الفترة اللاحقة لوصول كتلة ليكود إلى السلطة، التطور العام فى العلاقات الأوروبية الأمريكية فرض على واشنطن أن تعيد حساباتها وذلك فى أبعاد أربعة:

أولا: حزب ليكود نفسه ووصوله إلى السلطة، وإزاحته حزب المابای بما يعنيه ذلك من تصلب وتغير فى الأهداف والتعامل فى ومع المنطقة.

ثانيًا: ظهور وبوضوح نوع من الاستقلالية فى الإرادة الأوروبية، إن أوروبا التى تتجه إلى الوحدة تكتشف وفى صورة صريحة وقاطعة أن هناك حدودًا للتوافق المصلحى عقبها فهناك صدام، بل وصراع خفى بين المصالح الأوروبية وتلك الأمريكية، يبدأ هذا الصراع المصلحى مع (ديجول) الذى غادر الحلف الأطلنطى وهو فى قمة السعادة، ثم يعود ليبرز مرة أخرى عندما حاول (بومبيدو) مبادرة جادة للحوار العربى الأوروبى، ثم جاء ليبرز فى صورة ساطعة إزاء عملية التقارب بين ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية، وبصدد كل ما يتعلق بتوحيد ألمانيا فى أى صورة كانت، الشعب الألمانى يعيش ممزقًا إزاء الانقسام الذى لم يعرفه ولو مرة واحدة طيلة تاريخه، ثم جاء ليبرز أيضًا هذا الصدام فى المصالح فى صدام عنيف، ولكنه خفى بين الشركات الأمريكية، والقدرة الصناعية الأوروبية، وجاء ليظهر فى صورة أقل وضوحًا بصدد سياسة واشنطن الشرق أوسطية، وبصفة خاصة مع مصر.

ثالثًا: التعامل مع الاتحاد السوفييتى، فرغم أن الشيوعية الروسية تقلق القيادات الأوروبية المحافظة، إلا أن ذلك ليس بذلك القدر الذى يجعل من النظرة إليها على أنها عدو لا يمكن التفاهم معه، فروسيا قبل كل شىء آخر دولة أوروبية، وتقاليدها واحدة مع الفكر الأوروبى، ودول أوروبا الغربية لديها أحزاب شيوعية ذات قوة معينة، تمثل شريحة لها وزنها فى الرأى العام، كذلك هناك أوروبا اليسارية التى آن الأوان لأن تنفرج فى علاقاتها مع أوروبا الغربية ولنتذكر مرة أخرى أن مثل هذا الانقسام جديد على الحضارة الأوروبية، وقد آن الأوان لوضع حد له، ورغم كل شىء فأيهما أقرب إلى الآخر، أوروبا الشرقية التى لا يفصلها عن أوروبا الغربية سوى حائط برلين، أم الولايات المتحدة، وهناك محيط كامل يقف بين الجانبين، ثم يأتى فيكمل هذا الإطار

من التوافق والتليين للعلاقات السوفييتية الأوروبية مجيء جورباتشوف الذى عرف كيف يفجر هذه القنبلة.

رابعًا: ويكمل ذلك العلاقات مع دولة جنوب إفريقيا، هذه الناحية لا تعنينا مؤقتًا؛ ولكنها تنسحب بدورها على المنطقة ولو بطريق خفى، نتيجة للتوافق العجيب والتعاون القوى العلنى بين إسرائيل ودولة جنوب إفريقيا، وبصفة خاصة عقب مجيء كتلة ليكود إلى السلطة.

هذا الإطار العام من الخلاف، برز فى صورة صريحة وقاطعة عندما أثيرت فى فترة حكم ريجان كمشكلة مواجهة احتمالات غزو أوروبا الغربية من جانب حلف وارسو.

حلف وارسو... الواقع الأوروبى الغربى

قبل أن نطرح الموضوع، وبصفة خاصة، كيف استغلت إسرائيل هذا الواقع فى تخطيط سياستها وتعاملها مع الولايات المتحدة الأمريكية، علينا أن نتذكر أن هذا الموضوع أثير قبل مجيء (جورباتشوف) وفى فترة تميزت بعدة متغيرات:

المتغير الأول: وصول ريجان إلى السلطة، وهو يمثل الاتجاه المحافظ الجديد الذى ينظر إليه فى أوروبا بشىء من عدم التقدير المبالغ فيه، فهو ليس الاتجاه المحافظ التقليدى بقوته وقدرته رغم الكراهية المترسبة فى الرأى العام الأوروبى نحوه، وهو ليس الاتجاه الاشتراكى الذى يجد قبولا عامًا واحترامًا مبالغًا فيه، إنه وليد غير شرعى لأمة لا تقاليد لها وضعه فى عالم التقاليد السياسية لا يمكن أن يكون إلا بشىء من التحفظ.

المتغير الثانى: وضوح التفوق الساحق لحلف وارسوا إزاء حلف الأطلنطى، لقد اكتشفت أوروبا فجأة أن ما لديها من سلاح ـ بما فى ذلك السلاح الأمريكى التقليدى ـ لن يسمح بإيقاف حركة غزو خاطفة لأوروبا الغربية من الجيوش اليسارية، تعداد جيوش حلف موسكو يزيد على ضعف الجيوش الغربية المتمركزة فى دول الأطلنطى، عدد الدبابات التى يملكها حلف وارسو كذلك أكثر من ضعف ما يملك الحلف الأطلنطى مع إدخال أيضا فرنسا، الجندى أكثر تدريبًا وكفاءة، هناك تطور خطير كمى وكيفى لصالح شرق أوروبا، فهل سوف يستغل ذلك الاختلال فى التوازن؟ متى وكيف؟

المتغير الثالث: ما أثير فى تلك الفترة بغباء وقصر نظر من القيادات الأمريكية، وبصفة خاصة من (ريجان) وأعوانه، عن إمكانية استخدام القنبلة النووية فى أوروبا، وجعل محور الصراع النووى القادم خارج أرض الدولتين العظميين ثارت ثائرة القيادات الأوروبية فتذكرت عندئذ ما حدث عام ١٩٧٣ من استنفار نووى فى داخل أوروبا نفسها ودون معرفة القيادات الأوروبية بخلفيات ذلك الاستنفار الذى وصل إلى علمها فقط عن طريق الصحافة اليومية.

الخلافات والمناقشات والتراجعات بذلك الخصوص عديدة، ولا نستطيع أن نطيل فى ذلك حديثًا بعيدًا ولو نسبيًا عن موضوعنا المباشر، ما يعنينا بهذا الخصوص أنه فى خلال ذلك النقاش برز ولأول مرة الحديث عن القنبلة النووية التكتيكية، ورغم أننا سوف نعود لتفصيل ما تعنيه هذه القنبلة، وموضعها فى الترسانة الإسرائيلية، إلا أنه يكفى أن نذكر فى هذا المقام كيف أن هذه القنبلة النووية تتميز بأنها محدودة الفاعلية، إنها قادرة على أن تنال قطعة محدودة من حيث المساحة، ومن ثم فإشعاعاتها تكون بدورها فى نطاق محدود، التدمير يتجه إلى مساحة تتراوح ما بين ثلاثين كيلو مترًا مربعًا وخمسين كيلو مترًا، الإشعاع يتسع مع أقصى احتمالاته إلى خمسمائة كيلو متر مربع أى مساحة لا تتجاوز خمسة وعشرين كيلو مترًا طولا ومثلها عرضًا، ويساعد على تقييد الآثار لتلك القنبلة إلقاؤها من ارتفاع ساحق، لا تعنينا مؤقتًا التفاصيل الفنية بقدر ما يعنينا ما ارتبط بهذه القنبلة النووية التكتيكية من حيث علاقاتها بإسرائيل.

* * *

(٤)

قنبلة تكتيكية ذات إشعاع محدود يدمر الدول المحيطة بإسرائيل.. ولا يؤثر فيها

«هناك حرب قادمة فى هذه المنطقة، ويتعين على القيادة المصرية أن تستيقظ من غفلتها وأن تفهم ذلك جيدًا، إن النمر لن يمتنع عن افتراس الحمل، إذا راح الحمل يداعب شاربيه، نحن لم نلق بعد بأنفسنا فى التفاصيل والجزئيات، ولا نزال نعيش فى المقدمات الفكرية للتعامل مع هذه المنطقة التى هى أرضنا وأرض آبائنا، والتى ليس من حق أحد أن يضع قدمه فيها حتى لو قبلت ذلك بعض القيادات المخوخة، التى برزت بفعل فاعل وليس لها موضع بيننا، نريد رجالا يقودون هذه الأمة، وليس غلمانًا لا يتقنون إلا فن هز الأرداف، نريد زعماء يسطرون بدمائهم وحياتهم صفحات خالدة من القوة والقدرة والتضحية، هذه القيادات التى تحيط بنا ليست سوى قشور، سوف تنهار أمام أول ضربة، إنها لا تعكس صلابة أمتنا التاريخية».

ومعنى ذلك أن علينا أن نوضح حقائق معينة:

أولا: من هم أعداؤنا؟

ثانيًا: كيف يفكر كل عدو من أعدائنا؟

ثالثًا: وماذا قد أعد كل من أعدائنا لشل قدراتنا؟

لسنا غافلين عن ذلك، وسوف يأتى تفصيله فى موضعه، إن الذى نراه حولنا لا يدعو إلا إلى الألم والتمزق، لقد طردت مصر من الجامعة العربية، فكان من جانب قياداتنا الصمت ولو بكبرياء، ثم فتحوا لنا الباب للعودة، فلم نفعل سوى الطبل والزمر، فهل هذه هى تقاليد مصر الخالدة؟ لقد أخطأنا فى كلا الموقفين، وعلى قيادتنا أن تفهم ذلك وتعى معناه.

«لا يعنى هذا أننا نؤمن بسياسة كامب ديفيد، فقد عارضناها وتحملنا لذلك حياة المنفى، ولا يعنى ذلك أننا لا نؤمن بالعمل القومى العربى، فقط عايشناه وقبلنا أن نقضى ستة أعوام فى بغداد البعثية، والصواريخ تنهال على رؤوسنا، ولكن يجب أن تكون القواعد واضحة وأن يكون العمل مقننا، وأن يعرف كل منا حقه وواجبه، لقد آن الأوان أن نطرح جانبًا لغة المزايدات وأن يغادر القيادة كل من لا يصلح لتحمل تبعات القيادة».

«وليتذكر الجميع أن خصومنا يلعبون على هذا الغموض، ولنكن على وعى بأن أعداءنا منهم من يعيش بيننا ويلبس رداء العروبة، وهؤلاء يجب أن تتم تعريتهم بلا حياء، لا نزال فى بداية الحديث ولكل موضوع موضعه، ولنقتصر مؤقتًا على ما لا يريد أحد أن يعترف به، وهو ذلك الكم المخيف من السلاح الذى كدس فى إسرائيل ولحساب أيضًا الولايات المتحدة، يجب أن نكشف بوضوح عن الأهداف الحقيقية لواشنطن فى المنطقة.. ومن خلال مساندتها لإسرائيل، الترسانة التى استطاعت تل أبيب أن تخزنها فى مختلف أجزاء إسرائيل، لا يستطيع أن يتصورها العقل، حتى أن الاتحاد السوفييتى نفسه شعر فى لحظة معينة بالقلق، ليس فقط من ضخامة تلك الترسانة ومن تضمنها أسلحة لا تعنى إلا أمرًا واحدًا، الاستعداد لقتال لا يدخل فى إطار التصور التقليدى للحرب وللنظرية التقليدية للحرب، فى الإدراك الإسرائيلى السابق على مجىء حزب ليكود للحكم، الترسانة المسلحة تسعى إلى تحقيق واحد من هدفين أو هى على استعداد لتحقيق كلا الهدفين.

الهدف الأول: توسع إسرائيل فى المنطقة مبالغ فيه، لا يقف عند حدود دول الجوار بل يتجه إلى ما هو أبعد من ذلك، وهنا يلحظ المعلق بشىء من القلق أمرين:

الأول: النظرة الثابتة نحو إنشاء إسرائيل الكبرى، والتى لم تعد تقتصر على الهمس من أذن لأذن، بل إنها مطروحة بصراحة مطلقة، حديث وزير خارجية الولايات المتحدة بخصوص ضرورة تخلى إسرائيل عن فكرة إسرائيل الكبرى لم يكن دون أساس فى جوهره يذكرنا بالعاهرة عندما تقف تعلن عن إيمانها بالفضيلة، بل ونجد أنه أثناء حرب لبنان لم يعد المسئولون يتحدثون عن إنشاء إسرائيل الكبرى، وإنما عن خطوات تحقيق «المخطط الكبير» لغة جديدة لا يمكن إلا أن تعكس تصورًا مختلفًا أو

على الأقل يملك عناصر ليست معتادة، من بين هذه العناصر الحديث الثابت عن العودة إلى احتلال شبه جزيرة سيناء .

الثانى: التمييز بين إسرائيل الكبرى وحدود المجال الحيوى لإسرائيل، وبمعنى منطقة الهيمنة الإسرائيلية أن هذا المجال الحيوى يجب أن يمتد إلى باكستان شرقًا، والمغرب غربًا، وتركيا شمالا، والحبشة جنوبًا حدود إسرائيل الكبرى ليست هى حدود مجال إسرائيل الحيوى.

الهدف الثانى: حماية المصالح الأمريكية فى منطقة البحر المتوسط، ليس فقط فى مواجهة الغزو الشيوعى، بل وأيضًا لو حدث الصدام فى مواجهة أوروبا المتحدة، أوروبا المتحدة التى تضم اليوم فقط دول غرب أوروبا قد تضم غدا دول شرق أوروبا، وهى على كل لن تقف من واشنطن موقف الانصياع الذى عودتنا عليه، إنها سوف تعرف كيف تقول لا لواشنطن وعندئذ ما هى حدوّد هذا التطور؟ وكيف يجب تهذيبه؟ هنا يبدو دور إسرائيل».

لإيضاح هذا التطور نعرض لذلك حقائق ثلاث:

الحقيقة الأولى: أنه آن لنا ألا ننظر إلى إسرائيل إلا على أنها متحالفة مع واشنطن تحالفًا عضويًا بما يعنيه من نتائج، يجب أن تنعكس أيضًا على سياستنا مع واشنطن.

الحقيقة الثانية: أن هذا التطور يتيح للعالم العربى إمكانيات لا حصر لها فى التعامل أوروبا الجديدة: ليس فقط بمعنى دعائى بل وكذلك بمعنى حركى، وهو أمر فى حاجة إلى المتخصصين المحنكين.

الحقيقة الثالثة: أنه يجب ألا يغيب عن الذهن أن إسرائيل سوف تستغل ذلك التحالف الجديد لتحقيق أهدافها فى المنطقة، وسواء كان ذلك بتمزيق المنطقة، بحرب تشنها تل أبيب على الدول العربية، أو بصدام حقيقى دولى تلعب فيه إسرائيل دورًا أساسيًا، فعلى حكام العربى أن يعوا معنى ذلك ويعدوا أنفسهم لمواجهته.

ما يعنينا فى هذه الصرخة: أين القيادة المصرية من احتمالات هذا التطور؟ هل تعد نفسها لمواجهة مثل ذلك الموقف؟ ليس فقط فى التعامل مع إسرائيل، بل ومع القوى العظمى بل ومع الدول العربية نفسها؟

أم أنها سوف تظل تدفن رأسها فى الرمال؟

«الحديث عن القنبلة التكتيكية النووية، ورغم أنه لا يزال يغلفه الكثير من الغموض أو على الأقل عدم الرغبة فى طرح ذلك الموضوع علانية للنقاش بسبب ما ترتب عليه من قلب لجميع معطيات التعامل الدولى الأمر الذى أبرز مجموعة من الحقائق:

أولا: اكتشف الرأى العام أن الدولتين الأعظم أى الاتحاد السوفييتى من جانب والولايات المتحدة من جانب، هما وحدهما اللتان اكتشفتا القنبلة الذرية التكتيكية، وأن هذه القنبلة لا توجد ولا تخزن إلا فى داخل كلتا الدولتين بحيث إن القيادات المحلية سواء فى حلف وارسو أو فى الحلف الأطلنطى ليس لديها القدرة على الوصول إلى تلك القنبلة.

ثانيًا: فى خارج هاتين الدولتين هناك جهود مبذولة وضخمة توصلت إلى نتائج مرموقة فى العلاقة بين اتحاد جنوب إفريقيا وإسرائيل، بل ثبت وكما سوف نرى تفصيلا فيما بعد لدى المخابرات المسئولة أن هاتين الدولتين قد توصلتا إلى هذه القنبلة بفضل تعاون معين مكنهما من اختبار أيضًا تلك القنبلة منذ أكثر من خمسة أعوام.

ثالثًا: إن الولايات المتحدة تتجه إلى فكرة إيقاف الجيوش المتحالفة الشيوعية، لو فكرت فى الزحف حول وسط أوروبا وبصفة خاصة فى ألمانيا الشرقية باستخدام هذه القنبلة النووية، إنها الوسيلة الوحيدة لإيقاف التقدم الشيوعى نحو أوروبا الغربية وبصفة خاصة نحو بحر الشمال أو المحيط الأطلنطى بل والبحر المتوسط.

رابعًا: جميع القيادات السياسية الأوروبية وقفت ضد ذلك الاستخدام وتساءلت: نضرب أنفسنا بالقنبلة النووية، أيّا كانت محدودية إشعاعاتها؟ ورغم أن هذا القول كان بين جدران مغلقة إلا أنه تسرب للخارج، وكان رد فعله موجة عارمة فى عدة اتجاهات: تدعيم التحرك بعيدًا عن حلف الأطلنطى، ولو من خلال تحييد أوروبا من جانب آخر، ثم بروز صوت خافت بدأ يرتفع تدريجيّا يدور حول عملية نزع السلاح النووى والكيميائى من الأرض من جانب أخير.

فى هذا الإطار برزت عملية توظيف إسرائيل فى حوض البحر المتوسط لصالح الدبلوماسية الأمريكية.

قواعد التعاون الأمريكى الإسرائيلى فى البحر المتوسط الشرقى

تقدمت إسرائيل تعرض خدماتها على الولايات المتحدة الأمريكية، ورغم أن هذا تحيط به سرية مطلقة إلا أننا نعتقد أن عناصر هذا التعاون الذى لم يكشف عنه حتى اليوم بطريقة واضحة تعنى أموراً ثلاثة:

الأمر الأول: التخزين لهذه القنابل فى إسرائيل.

الأمر الثانى: استعداد إسرائيل لضرب أوروبا، وبعبارة أدق وسط أوروبا، حول أرض ألمانيا الشرقية وما يحيط بها فى جنوب وسط أوروبا، بتلك القنابل لو طلب منها ذلك من جانب واشنطن بحيث تمنع القوات اليسارية من أن تجتاز منطقة الألب، والتدفق نحو البحر المتوسط.

الأمر الثالث: الانطلاق فى تلك العملية من خطة كلية شاملة، أعادت تشكيل الاستراتيچية الأمريكية بما يخدم الأهداف الإستراتيچية.

كل من هذه العناصر فى حاجة إلى تفصيل، بل يرتبط بذلك مجموعة من التساؤلات التى يجب على المحلل السياسى أن يتعامل معها بدقة ووضوح، ماذا تجنى إسرائيل من ذلك؟ وما هى الخطة الإستراتيچية الأمريكية الجديدة؟ وأين من كل ذلك التعامل الإسرائيلى مع منطقة الشرق الأوسط، وأين وضع مصر ومستقبل مصر من كل ذلك؟

الإستراتيچية الأمريكية الجديدة، مع خطر الفيضان الروسى فى وسط أوروبا

ورغم أن الدبلوماسية الأمريكية وكذلك الإستراتيچية الأمريكية تطورت وتنقلت فى اضطراب واضح منذ الحرب العالمية الثانية، إلا أن الأمر الذى لا شك فيه أننا نلحظ - وبصفة عامة - فرقًا واضحًا بين تلك الإستراتيچية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، ونفس تلك الإستراتچية عقب قرابة أربعين عامًا من تلك الحرب، النظرة الأمريكية التقليدية التى تبلورت خلال الخمسينيات وكان حصيلتها حلف الأطلنطى، أساسها الدفاع عن أوروبا فى وسط القارة العجوز من خلال مثلث يجمع بين ألمانيا الغربية، وفرنسا، وإيطاليا كقاعدة متقدمة خلفها عناصر مساندة فى بحر الشمال من جانب،

ومن بريطانيا من جانب آخر، فى خط ممتد من أقصى القطب إلى جنوب أوروبا بجوار البرتغال وإسبانيا، هذه النظرة اختفت وحلت محلها نظرية أساسها أن تلك الأرض سوف تقوم فقط بعمليات إعاقة للتقدم، ولكن الدفاع سوف يتمركز فى شمال إفريقيا أى جنوب البحر المتوسط، وذلك لعدة متغيرات:

أولا: وضوح إرادة المجتمع الأوروبى فى عدم استعداده أو رغبته للدخول فى حرب حقيقية تدور على أرضه حيث سوف يكون التدمير مخيفًا، و التضحيات لا حدود لها بسبب طبيعية الحياة الأوروبية، وفى حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

ثانيًا: وضوح التفوق الساحق لأوروبا الشرقية، الأمر الذى يجعل أى مقاومة مباشرة له عابثة ومن ثم فإن الإستراتيجية الأمريكية تفضل البدء بإرهاق التدفق اليسارى فى معارك جزئية ومن خلال عمليات انتشار سريعة واسعة تبعد قواته عن مصادر تمويله وتطيل خطوط مواصلاته بحيث تسبق توجيه الضربة القاصمة.

ثالثًا: الاتجاه الثابت فى أوروبا نحو الوحدة، وإذا كانت اليوم تتوقع واشنطن الوحدة فى دول السوق المشتركة فى غرب أوروبا، فإن الآمال غير المعلنة هى أن تصير الوحدة لكل دول أوروبا بما فى ذلك أوروبا الشرقية، وهذا ما يؤكده الجميع فى فترة غير قصيرة نسبيًا، مشروع توصيل نهر الدانوب بوسط أوروبا، وحتى لوكسمبرج، وجعله قناة مائية للاتصال يسير فى خطى حثيثة على قدم وساق، الغاز السوفييتى يتدفق بدوره حتى ألمانيا الغربية، الأحاديث الخاصة تراهن على أن هذه الوحدة لن تتجاوز الربع الثانى من القرن القادم، بل والبعض يتصور أن هذه الوحدة سوف يصاحبها تفتيت فى الاتحاد السوفييتى، بحيث سوف يشمل أيضًا روسيا الأوروبية (وقد صدقت بالفعل التوقعات العلمية للعلامة الراحل بعد وفاته بثلاثة عشر عامًا فقط)، ليعيد حلم ديجول من الأورال إلى المحيط، فنترك الأحلام جانبًا ولكن الذى لا شك فيه أنها خلال أعوام قليلة سوف نجد أكثر من نصف دول القارة الأوروبية فى تكتل واحد، يعكس إرادة دولية واحدة وسياسة خارجية واحدة، جميع الجهود الأمريكية لوقف هذا التطور الذى باء بالفشل.

رابعًا: كذلك وضوح الدور الذى تلعبه ليبيا لصالح الاتحاد السوفييتى، إن التكدس

المخيف للسلاح فى الصحراء الليبية وتصور أنه من ليبيا سوف يحدث تقدم سوفييتى نحو البحار المحيطة بإفريقيا لا يمكن أن تتركه واشنطن دون اهتمام.

وهكذا تبلورت عناصر هذه الإستراتيجية الأمريكية حول عناصر ثلاثة:

(أ) العنصر الأول وهو محور هذه الإستراتيجية، وأساسه أن الجيوش الأمريكية سوف تجتاح شمال إفريقيا، ابتداء من المغرب أى من المحيط الأطلسى ومتجهة فى خطوات سريعة كاسحة نحو قناة السويس، لتخلق الاتصال مع إسرائيل، هذا التوغل سوف يحقق لها مزايا ثلاث:

الأول: تحييد جميع القوى الموالية للاتحاد السوفييتى، وبصفة خاصة تضع حدّا لإمكانية استخدام ليبيا كبقعة زيت للانتشار الروسى فى إفريقيا، حيث يوجد تكدس للسلاح يدعو للقلق.

الثانى: عدم الصدام المباشر مع القوى الشيوعية المتدفقة نحو وسط أوروبا، وحيث سوف يكون البحر المتوسط بمثابة عائق طبيعى.

الثالث: الاعتماد على الذات، حيث إن القوى الأمريكية المتدفقة بدءًا من المغرب سوف تترابط مع القاعدة الأم، من خلال المحيط الأطلسى دون الحاجة إلى الوسيط وهو مفهوم بدأ يسيطر منذ عدة أعوام على الفكر العسكرى الأمريكى.

(ب) فى خلال ذلك يعهد إلى إسرائيل بوظيفتين لهما أهمية مطلقة فى هذا التخطيط:

الأولى: وقد سبق ورأيناها وهى ضرب وسط أوروبا بالقنابل النووية التكتيكية؛ لإيقاف التدفق الشيوعى، وهى الوسيلة الوحيدة لتحقيق ذلك الهدف.

الثانية: ضرب الأسطول السوفييتى فى قواعده بالبحر الأسود ومنعه من الخروج بكثافة معينة إلى البحر المتوسط، مما لا شك فيه أن هناك عوائق طبيعية تحول دون ذلك الخروج المكثف، ولكن يأتى الأسطول الجوى الإسرائيلى والصواريخ أرض أرض التى تكمل ذلك وتمنع هذا الأسطول من أن يفعل ذلك، وتمنع هذا الأسطول من أن يكون مصدر تهديد جدى وبصفة خاصة فى البحر المتوسط الشرقى.

(جـ) العنصر الثالث والذى أساسه التوغل الأمريكى، بمساعدة الجيش الإسرائيلى فى الشرق العربى، ليلتقى بالقوات التركية، وبحيث يستطيع أن ينال من الاتحاد السوفييتى من أضعف مواقعه فى منطقة القوقاز وما يحيط بها.

فلنترك جانبًا العنصر الثالث الذى لم يتضح بعد بخصوصه التصور الأمريكى بدقة وثبات، ولكن فنتذكر أن هذا العنصر كان خلف الإدراك الأمريكى الذى كثر الحديث عنه فى لحظة معينة، والذى كان أساسه تحويل منطقة الشرق الأوسط إلى قاعدة دفاعية وهجومية للعسكرية الأمريكية، والذى ارتبط به التفكير فى تحويل منطقة سيناء إلى قاعدة مستقرة تخدم مثل هذا التحول، وعلى كل فإن هذا التفكير ليس جديدًا، بل كان أحد عناصر الإستراتيچية النازية التى كانت تسعى لأن تنال من الاتحاد السوفييتى، عن طريق الالتفاف من الجنوب ولم يوقفها سوى هزيمة روميل فى العلمين.

بطبيعة الحال قد يتساءل البعض: وهل هذا التخطيط وبصفة خاصة فى عنصريه الأول والثانى لا يزال قائمًا رغم التغير الداخلى فى الاتحاد السوفييتى الذى وضح بصفة خاصة بعد مجىء جورباتشوف؟ نعم لا يزال قائمًا وعلينا بذلك الخصوص أن نتذكر عدة أشياء، إنه فى نطاق التخطيط، فإن واضع الإستراتيچية يجب أن يضع أمامه جميع الاحتمالات حتى لا يفاجأ فى أى موقف يواجهه، من جانب آخر فإن القيادة الأمريكية لا تزال تنظر إلى النوايا الحقيقية لجورباتشوف بكثير من الشك، ومن جانب ثالث فإن احتمال اختفاء (جورباتشوف) وعودة الفريق الحاكم القديم أو على الأقل أفكاره لا تزال قائمة، ومن جانب آخر فلا يوجد ما يمنع من استخدام لغة السلم والسلام كوسيلة للتخدير، أو استعدادا لحرب تأتى مفاجئة دون توقعات.

إسرائيل والإستراتيچية الجديدة فى منطقة حوض البحر المتوسط

عودة إلى التساؤل: ماذا تجنى إسرائيل من قيامها بهذه الوظيفة لصالح العسكرية الأمريكية؟ إننا نعلم جيدًا أن تل أبيب لا تعمل إلا لحسابها، وحتى إن تظاهرت بأنها تخدم إحدى الإستراتيچيات الكبرى، فإن أهدافها هو فقط مصلحتها، تعود (بن جوروين) أن يقول على من يقود السياسة الإسرائيلية أن يتصور نفسه راكبًا لدراجة

ويريد أن يصعد الجبل، هو ينتظر حتى يجد حافلة متجهة إلى أعلى فيضع نفسه فى وضع يجعله مشتبكًا مع الحافلة، ولا يفعل أكثر من أن يغير من وضعه تبعًا لحركة الحافلة فى صعودها إلى أعلى ولا يتعب نفسه ولا يبذل جهدًا أكثر من الاحتفاظ بتوازنه.

إسرائيل تحقق بهذا التوظيف أهدافًا متعددة، كل منها له وزنه

أولا: أول هذه الأهداف والذى قد يبدو لنا محدود الأهمية ولكنه فى الإدراك الصهيونى هو جوهرى وأساسى: الانتقام من ألمانيا، إن ألمانيا النازية التى استأصلت المجتمع اليهودى يجب أن تدفع ثمن الخطيئة فى شخص أبنائها، هذا الهدف ثابت وتقليدى فى فكر حيروت، عندما أرادت تل أبيب فى فترة (بن جوريون) أن تعيد علاقاتها مع ألمانيا، حتى مع التعويضات المعروفة التى مكنت إسرائيل من حرب ١٩٦٧ تصدى له (مناحم بيجين) ولم يتردد للمرة الوحيدة فى تاريخه أن يستخدم أقذر النعوت، وأقبح الصفات، وتحت قبة الكنيست، هدف نفسى ولكنه فى المجتمع الصهيونى يصير عنصرًا أساسيًا ومهمًا فى تفسير التعامل.

ثانيًا: زيادة التبعية الأمريكية لإسرائيل، بعض القوى فى داخل المجتمع الأمريكى بدأت تتحدث عن الخلاف الإستراتيجى وبصفة خاصة فى وزارة الخارجية ذات تقاليد التعاطف مع القضية العربية، هذا التوظيف لا بد وأن يزيل هذه الغشاوة، ويطرح على الولايات المتحدة سؤالا صريحًا، ما هو ثمن هذا التوظيف؟ لمن يكون سوى مساندة إسرائيل فى النطاق الإقليمى، الأمر الذى يفسر مواقف واشنطن إلى جانب إسرائيل فى أكثر من مناسبة حتى والرأى العام الدولى وجميع القوى الدولية تضج من تعنتها وسلوكها إزاء أبناء فلسطين فى الأرض المحتلة.

ثالثًا: كذلك فإن مثل هذا التوظيف يصير ورقة حاسمة فى التلاعب بالاتحاد السوفييتى نفسه، إنها أداة للمساومة، والواقع أن عملية المساومة ليست جديدة فى تاريخ السياسة الإسرائيلية، استخدمتها أثناء ثورة الخمينى، وهى اليوم قادرة على استخدامها فى علاقاتها بالاتحاد السوفييتى، إسرائيل تعلم أن مستقبلها يتوقف على

هجرة اليهود الروس وإحدى وسائل التطويع للإدارة الحاكمة فى موسكو، هو أيضًا التهديد المقنع، والواقع أن هذا التوظيف يرفع من إسرائيل ليجعل منها إحدى أدوات التأثير فى التوازن الدولى خصوصًا عندما يرتبط ذلك بأهداف أخرى رأيناها فى التطور الكونى، الذى تعيشه الإستراتيچية الأمريكية.

رابعًا: على أن هناك أهداف أخرى أكثر عمقًا، وأكثر ارتباطًا بالتعامل الإسرائيلى مع منطقة الشرق الأوسط، فالولايات المتحدة لم تكن راضية عن التطور النووى فى الإستراتيجية العسكرية الإسرائيلية، مثل هذا التعامل السابق ذكره لا بد وأن يؤدى إلى تحييد الولايات المتحدة إزاء التوجه الإسرائيلى، نحو إنتاج القنبلة الذرية، وبصفة خاصة وهى لن تستخدم سوى القنبلة الذرية التكتيكية، لم نسمع كلمة واحدة عن هذه القنبلة التكتيكية، ولكن المتتبع للمناقشات لاحظ أمرين: **الأول** هجوم حقيقى على إسرائيل من جانب جميع المتحدثين الأوروپيين، **الثانى** وهو أن الجميع يعرف بخفايا التعاون العسكرى بين واشنطن وتل أبيب، والذى يدور أساسًا حول السلاح غير التقليدى.

ولنا عودة إلى ذلك: فمثل هذا الموضوع أخطر من أن يترك عابرًا.

جميع هذه العناصر تقودنا مرة أخرى لتأكيد كيف أن سياسة إسرائيل الإقليمية والدولية هى الإلغاء الكلى والشامل لوظيفة مصر فى هذا المجال، وسرقة هذه الوظيفة فقط لصالح تل أبيب.

وظائف إسرائيل والدور الإقليمى لصالح الدبلوماسية الأمريكية

قبل أن نترك جانبًا هذه الوظيفة الدولية لإسرائيل، حيث تصير الوظيفة الإقليمية قوة تقود إلى تدعيم الدور الدولى والعكس صحيح، وحيث يبرز واضحًا كيف أضحت إسرائيل إحدى أدوات الدبلوماسية الأمريكية فى تطويع المنطقة لخدمتها، وكيف يرتبط كل ذلك بتحويل إسرائيل إلى قاعدة تعمل فقط لصالح العسكرية الأمريكية، علينا أن نتذكر وظائف أخرى نرتبط بهذا التوظيف.

الأولى: عملية تخزين السلاح، فكما أن ليبيا تخزن السلاح لصالح موسكو، فإن إسرائيل تقوم بهذه العملية لصالح واشنطن، والسلاح الذى يخزن فى إسرائيل ليس فقط السلاح التقليدى، بل وبصفة أساسية السلاح غير التقليدى، القنبلة النووية التكتيكية رأيناها ولكن يجب أن نضيف السلاح الكيميائى والجرثومى، وكلاهما فى غاية الخطورة فى الحرب القادمة، وسوف نرى ذلك تفصيلا فيما بعد.

الثانية: تحويل إسرائيل إلى قاعدة خلفية لتقديم الخدمات للجيش المقاتل، أى الجيش الأمريكى الذى قد يفرض عليه القتال فى هذه المنطقة، الخدمات متنوعة، فمنها الخدمات الصحية، بما فى ذلك المستشفيات والمصحات، كذلك الخدمات الترفيهية، والتى تبدأ من أماكن الاسترخاء إلى منازل المتعة الرخيصة، مشروع (هوفمان) الذى كان قد طرح قبل الانسحاب الإسرائيلى من سيناء، والمتعلق بتحويل الكيبوتزات إلى قرى سياحية ليس غريبا عن هذا المفهوم والذى أساسه إنشاء خط من الكيبوتزات على طول الحدود الإسرائيلية الشرقية وبحيث يمتد حتى شرم الشيخ، وقد جاءت الفترة الأخيرة تحدثنا عن التفكير فى مشاريع أخرى على طول الشاطئ الإسرائيلى وبصفة خاصة فى الجزء المواجه لمدينة القدس.

الثالثة: ويرتبط بذلك مشروع قديم طرح فى أوائل الستينيات، حول مستقبل إسرائيل، وعاد الحديث عنه يتجدد خلال الأعوام الماضية بخصوص تحويل تل أبيب إلى عاصمة سياحية ومصرفية لمنطقة الشرق الأوسط بل وفى علاقات هذه المنطقة بالقارات الثلاث، العاصمة السياحية تعنى ربط تل أبيب بالعالم القديم من خلال أربعة خطوط حديدية أحدها يتجه إلى طهران عبر بغداد والثانى يخترق صحراء سيناء، ليصل إلى الرباط على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط الإفريقى والثالث يدور حول البحر الأحمر والمتوسط مخترقًا شبه الجزيرة العربية شرقًا، وحوض وادى النيل غربًا، لتجتمع هذه الروافد الثلاثة فى تل أبيب، ليصعد منها خط رابع يصل إلى أوروبا عبر إستنبول وليعيد إلى الحياة فى صورة أكثر عصرية قطار الشرق السريع، المهم أنه فى هذا التصور تصير تل أبيب وقد أضحت العاصمة العالمية للسياحة التقليدية فى دول القارات الثلاث القديمة، وهكذا تتعانق النواحى الاقتصادية بالأبعاد العسكرية، وكلاهما يجتمعان فى توظيف إقليمى لصالح النفوذ الدولى، وفى توظيف دولى لصالح التوسع الإقليمى لدولة إسرائيل».

ولكن هل هذا هو كل شيء؟

وكيف يمكن فى هذا الإطار أن تترك القيادة الصهيونية مصر دون أن تسيطر عليها وتتحكم فى قيادتها، وتوجهها حيث تريد، تارة بوعى حقيقى وتارة دون وعى.

مصر تملك وظيفتها التاريخية، حضارية وإقليمية، ودولية، وهى لا بد وأن تصطدم بمثل هذا التصور الإسرائيلى، ومن ثم لا بد من شل و استئصال مصدر الخطر.

كيف تفكر إسرائيل والقيادة الحاكمة فى تل أبيب بهذا الخصوص؟

سؤال فى حاجة إلى وقفة تأمل.

* * *

(٥)

الترسانة العسكرية الإسرائيلية الجديدة وخصائصها القتالية

«الموضوع الذى نثيره على هذه الصفحات من أعقد ما يمكن أن يتعرض له مفكر، إنه فى جوهره يدور حول تقييم سياستنا فى مواجهة إسرائيل، مثل هذه العملية، عملية التقييم، تثير العديد من الصعوبات، التى يكاد يستحيل اجتيازها، أولى هذه الصعوبات وأهمها المصادر، فإلى جانب صعوبة الوصول إلى المعلومات الحقيقية، فإن أحد أساليب أجهزة المخابرات المعروفة هو تسريب معلومات غير دقيقة، أو خاطئة ومبالغ فيها، تارة بقصد خلق الخوف والرهبة، وتارة معلومات هى بعيدة عن الموضوع لجذب الأنظار بعيداً عن حقيقة ما يجرى فى الدولة أو المجتمع موضع المناقشة، كلا هذين الأسلوبين برعت فيهما المخابرات الإسرائيلية والأمريكية.

الأسلوب الأول أى خلق الخوف والرهبة إلى حد اليأس، استخدمته القيادات الصهيونية، وقد كشفنا عن ذلك فى مؤلفنا عن «الحرب النفسية» وحتى قبل صدور القرار الدولى بالتقسيم.

الأسلوب الثانى برعت فيه بدورها المخابرات الأمريكية، والتقرير المشهور عن الإنتاج البترولى فى الاتحاد السوفييتى أضحى من المسلم به أنه اختلق، وبهدف محدد، يدور حول صرف النظر عن احتمالات انخفاض سعر البترول فى فترة معينة، ومن هنا تبدو أمامنا أول صعوبة فى التحقق من المعلومات درجت الدول ذات الفاعلية الدولية أن تكون إحدى وظائف أجهزتها للمخابرات الدراسة العلمية المتأنية لهذه التقارير واتخاذ قرارات بشأنها من حيث الترجيح أو الاستبعاد، ودرجة سواء الترجيح أو عدم القناعة، جهاز المخابرات فى ألمانيا الغربية ضم أكثر من أربعمائة عالم متخصص، وظيفتهم فقط هذه العملية، فهل نحن على علم بذلك؟ وهل جهاز المخابرات لدينا

يملك مثل هذه الأداة؟ لا أريد أن أجيب فإن ما أعرفه لا يدعو إلا إلى الخجل؛ ولذلك فإن الحديث يجب أن يكون بحذر، وأن يتجنب المرء سواء التهويل والمبالغة، أو التهوين والتحرز، فى كلا الحالين هناك خطأ يجب تفاديه.

ويرتبط بذلك، ورغم أن ذلك موضوع آخر سوف نعود له فى موضع آخر، بينما إسرائيل بفضل أجهزتها المتعددة المتواجدة بيننا، استطاعت أن تعلم كل شىء عنا، وبجميع التفاصيل الخفية حتى عن علمائنا، نحن لم نعلم ولن نعلم عن إسرائيل شيئا بسبب ذلك التهرب الواضح من قياداتنا، فى الخوض فى هذا الموضوع، ولا نقصد فقط بقياداتنا أولئك المسئولين عن سياستنا الخارجية والعسكرية بل وحتى قياداتنا العلمية.

فى مثل هذا الواقع، لو اضطر الباحث أو المسئول اتخاذ موقف صريح بما يعنيه ذلك من ترجيح معين، فكيف يكون السبيل؟

علماء الإستراتيجية يتقدمون بقاعدتين

الأولى: أى احتمال مهما ضعفت نسبة ترجيحه يجب أن يؤخذ فى الاعتبار وأن تعد العدة لمواجهته.

الثانية: أن تخطيط التعامل يجب أن يكون أساسه ما اتفق على تسميته «أسوأ موقف للتعامل».

القاعدة الأولى: تعنى أنه مهما ضعفت احتمالات موقف معين، فيجب أن يؤخذ ذلك الموقف فى الاعتبار، من المعروف أن احتمالات الحرب النووية بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة لا تتجاوز ٢٪ وأن نصف ذلك الرقم أى ١٪ أساسه احتمالات حدوث اضطراب ذهنى لمن يملك مفاتيح اتخاذ القرار، بإطلاق السلاح النووى، وهذا يعنى أن الاحتمال الحقيقى هو فقط بنسبة ١٪ ومع ذلك فإن هذا الاحتمال هو أساس مطلق للإستراتيجية الأمريكية وتبعًا لذلك جميع عناصر التحرك الدبلوماسى الأمريكى.

القاعدة الثانية: هى أن على المخطط للتعامل أن يفترض أسوأ موقف للتعامل سواء بمعنى تحالف الأعداء، بل وجميع الأعداء، أو احتمال المباغتة دون أى قدرة على

التوقع أو احتمال تحييد جميع أدوات الدفاع والتعامل العسكرى، أسوأ موقف يمكن أن تتعرض له دولة معينة، ما هو هذا الموقف؟ أى أسوأ وضع يمكن أن توجد فيه دولة من الدول، هو الذى يجب أن يكون أساس التخطيط للتعامل مع الأعداء، بل إن هذا الافتراض وهذا التصور يصل إلى حد وضع خطة للتعامل أساسها تحول جميع الأصدقاء إلى أعداء ولهذا نسمع الحديث حتى عن إستراتيجية للقتال، أساسها نزع السلاح من يد العدو، لاستخدامه ضد ذلك العدو، وذلك يعنى وضعًا نشن فيه قتالا ونحن لا نملك سلاحًا للقتال.

ماذا يعنى ذلك بالنسبة لنا؟

يجب أن نجعل ولو من احتمال القتال مع إسرائيل بنسبة ١٪ أساسًا للتقدير وأن ندخله فى حسابنا بجدية كاملة، كذلك يجب أن نملك إستراتيجيتنا المستقلة، والتى أساسها أسوأ موقف متصور، ويعنى ذلك احتمال أن تنقلب جميع الدول العربية ضدنا، بل ومتحالفة مع إسرائيل، إن هذا هو علم التدبر، ولكن هل نحن نملك قيادة تصلح لذلك ؟؟

ملحوظة أخرى يجب أن نطرحها منذ الآن، ونكون على وعى حقيقى بما نعنيه، تحليلنا للواقع الإسرائيلى بصدق وأمانة، لا يعنى أننا غافلون عن ذلك الذى أصاب هذا الواقع من ضعف داخلى وإقليمى، ودولى، إسرائيل لم تعد تملك تلك القيادات الرائدة، زعماؤها أشبه برجال العصابات تبحث عبثًا عن واحد من الطبقة الحاكمة، يمكن أن يوصف بأنه رجل دولة، التماسك الأيديولوچى اختفى منذ حرب لبنان، المشروع الصهيونى قد دخل مرحلة التهلهل، ولكن ونحن نؤكد ذلك علينا أن نتذكر كذلك ضرورة مقارنة إسرائيل بخصومها الذين يحيطون بها، المثل الذى نعرفه جيدًا يقول بأن «الأعور وسط العميان ملك».

يجب منذ البداية أن نتساءل: لماذا إسرائيل وهى مصابة بكل هذه النقائص قوية فى مواجهة خصومها؟

أسباب ثلاثة يجب أن تكون واضحة فى الذهن نسردها مؤقتًا دون التفصيل فى جزئياتها ولو مؤقتًا.

أولا : الضعف العربى على جميع المستويات ودون استثناء، لا يجوز أن تخدعنا الأصوات المرتفعة، ولا يجوز أن نقف أمام الظواهر البراقة، قوة الشعوب ليست بغناها أو بحالة اليسر التى يمكن أن تعيشها بعض الفئات، القوة الحقيقية هى الصلابة والقدرة على تخطى المصاعب.

ثانيًا : التموين الخارجى وعلى وجه التحديد من جانب القوى العظمى للوجود الإسرائيلى، جميع القوى الدولية تقف إلى جوار إسرائيل، بعضها بصراحة، حيث يتم توظيف الدولة اليهودية لصالح تلك القوى، ولكن هناك قوى أخرى من حيث الواقع تقف إلى جوار إسرائيل وإن كانت تعلن غير ذلك، والدليل الواضح هو أحد الأمثلة، دولة كفرنسا، إنها هى التى مكنت إسرائيل من أن تصير دولة نووية، والتعاون بينها وبين إسرائيل حتى هذه اللحظة بذلك الخصوص على قدم وساق.

ثالثًا : القدرة الصهيونية، فإذا كانت إسرائيل تضعف كقدرة دولية، تزداد قوة وتوغلا حتى أن الحديث عن الصهيونية غير اليهودية أضحى متداولا ومتكررًا، وهى بهذا المعنى قادرة على أن تقدم إسرائيل قيادات تلعب من خلف الستار، ذلك الدور الذى عودتنا القيادات الإسرائيلية أن تقوم به وبفاعلية، ولنذكر على سبيل المثال (سيلفر وجولدن) وعقبهما (كيسنجر) الذى أنقذ إسرائيل حقيقة فى حرب ١٩٧٣، ومكنها من نصر دبلوماسى لم تكن تحلم به، وسوف نرى ذلك فى موضعه.

إسرائيل التى نواجهها اليوم، والتى سوف نواجهها فى الغد، بل وفى الوقت العاجل ليست هى التى واجهناها حتى حرب ١٩٧٣، هذا ما يجب أن ندخله فى الاعتبار وأن تفهمه قياداتنا بوضوح، مما لا شك فيه أن إسرائيل اليوم والغد تملك من عناصر الضعف الكثير، ولكنها تملك أيضًا من عناصر القوة الكثير، وواجب قياداتنا أن تفهم فن القيادة، إن معنى تحليل عناصر القوة لشلها، وعناصر الضعف لتضخيمها، قياداتنا تفضل على ذلك ما أسميه سياسة البكاء على الأطلال واللطم على الخدود، فهل هكذا تقاد أمة؟

أحد عناصر القوة فى إسرائيل هو المؤسسة العسكرية

فهل لدينا جهاز يدرس ويملك من المعلومات الدقيقة والمتجددة كل ما يعنى تلك المؤسسة؟ منذ قرابة خمسة أعوام، خرج علينا عالم إسرائيل يتحدث عن الديمقراطية

العسكرية ومستقبلها فى إسرائيل، وكان لمؤلفه فى الأوساط العلمية المتخصصة دوى القنبلة وعندما عدت إلى القاهرة منذ عدة أشهر رحت أبحث بحكم الفضول العلمى عن هذا الكتاب أو من قرأه واطلع عليه أو تساءل عن معنى ما ورد به فلم أجد إلا البلاهة المطلقة، والغريب أن صاحب هذا المؤلف وهو إسرائيلى «يورام بيرى» ينتمى إلى مدرسة علمية يقودها عالم آخر يهودى ولد بالإسكندرية ويعمل حاليًا فى جامعة هارفارد، وأصدر مؤلفا منذ أكثر من عشرة أعوام يعبر عن نفس التوجه ولكن بحذر، حل ضيفًا فى أكثر من مناسبة على مصلحة الاستعلامات المصرية، ولم يفكر أحد فى أن يجرى حوارًا معه من متخصص ليستفيد على الأقل من وجوده ومما أنفق عليه فى مصر أثناء حلوله ضيفًا مكرمًا على بلادنا؟ أقصد بذلك العالم اليهودى (سافران).

قديمًا قيل إن الشكوى لغير الله مذلة، فهل ينطبق هذا القول أيضًا على علماء مصر الذين يعيشون ولا هاجس لهم إلا أن يوقظوا الهمم ويعيدوا القيادات إلى وعيها.

القيادة التى تخطط لمستقبل إسرائيل، ولفلسفة التعامل مع المنطقة، هى القيادة العسكرية المهنية، وعلمتها حرب لبنان، وهى تعمل فى صمت وهدوء استعدادًا للمعركة القادمة، فلنقتصر مؤقتًا على تحديد بعض العناصر التى يجب أن نكون على وعى بها، وقد طرحنا موضوع القنبلة النووية التكتيكية، نقطة البداية، فى الفقه العسكرى الإسرائيلى، الذى تكون خلال الأعوام العشرة الماضية، ينبع من نقطة أساسية فى كل ما له صلة بالتعامل مع دول الجوار، وقد فهمت هذه الكلمة بأوسع معانيها التمييز بين الإجابة على السؤال، متى يجب أن تحارب إسرائيل؟ والسؤال الآخر كيف يجب أن تحارب إسرائيل؟ السؤال الأول يعنى تحديد اللحظة التى فيها تكتمل عناصر التطور، فإذا بإسرائيل عليها أن تلجأ إلى أسلوب القتال العضوى، بمعنى أن ترفع السلاح ولا تجد سوى هذه الأداة أى القوة العنيفة وسيلة لتحقيق أهدافها القومية، تحديد هذه اللحظة هى وظيفة القيادة القومية، ولكن السؤال الثانى يختلف: إنه يعنى ما هو الأسلوب الأمثل للقتال؟ ما هو خير أسلوب للقضاء على الخصم؟ وهو يعنى ليس فقط السلاح المستخدم، بل وكذلك الأرض التى يجب أن تحتضنها الأداة المقاتلة، فضلا عن أسلوب إدارة القتال، الحرب هى سلاح وقائد وأرضية للمعركة وأسلوب التعامل مع هذه العناصر الثلاثة، أى تخطيط للقتال هذا هو جوهر العملية القتالية ولا يجوز أن تتدخل فيها أى قيادة خارج القيادة العسكرية كل ما يتصل بها لا

يمكن أن تقول فيها كلمة إلا المؤسسة العسكرية، وقيادتها القتالية، قد تبدو التفرقة بين متى يجب أن نقاتل؟ وكيف يجب أن نقاتل؟ سهلة واضحة، وهى كذلك فى كثير من المواقع، هل يكون البدء بالهجوم من جانب الجيش الإسرائيلى أم تلقى الضربة الأولى يكون من نصيبه ليعقب ذلك الهجوم الصاعق؟ هل تكون البداية بمعنى الضربة المجهضة، وسيلتها الصواريخ المكثفة، أم يجب الالتجاء إلى الطيران لأداء تلك الضربة المجهضة؟ هل يجب أن يأخذ القتال صورة التراجع مع سياسية الأرض المحروقة، ثم القيام بعملية التفاف وحصار لإكراه الجيش المتقدم على الاستسلام، أم الهجوم الممتد على شكل رأس الثور؛ مع البحث عن نقاط الضعف لتحقيق عملية اختراق، ومن ثم فرض الاستسلام؟ هذه أسئلة جميعها تدور حول الاستفهام: كيف يجب أن نقاتل، وليس من حق أحد سوى المؤسسة العسكرية أن تتدخل فيه، ليس (للقيادة القومية)، والتى يغلب عليها الطابع السياسى سواء كانت تمثل الطبقة الحاكمة، أو المعارضة المسئولة أن تتدخل فيها.

منطق عسكرى جديد لم تعرفه إسرائيل قبل ذلك، وبصفة خاصة قبل حرب لبنان، ورغم أن هذا المنطق سوف يكون موضع تحليل أكثر عمقًا، وأكثر تفصيلا فيما بعد، إلا أن ما يعنينا مؤقتًا من هذا المنطق عنصران أساسيان.

العنصر الأول: الفهم الواضح للمتغيرات الجديدة، التى تعاصرها المنطقة، والتى يجب أن تتعامل معها من هذا المنطق (العسكرية الإسرائيلية).

العنصر الثانى: النتائج المترتبة على ذلك التطور، من حيث السلاح الذى يجب أن تستخدمه إسرائيل فى تعاملها مع المنطقة.

* * *

(٦)

الخطوة الإسرائيلية القادمة:
حرب توسعية لتحقيق الهيمنة الصهيونية الكاملة على المنطقة

«هناك حرب قادمة فى منطقة الشرق الأوسط . . » هذه الحرب، سوف تشنها تل أبيب على دول المنطقة المحيطة بها . . وهى حرب من نوع جديد، لن يكون هدفها مجرد الدفاع الهجومى، كما عودتنا إسرائيل، ولن يكون محورها أن تنتزع الشرعية الإقليمية بقوة السلاح كما حدث فى عام ١٩٥٦، أو تأديب القيادات التى جرؤت على أن ترفع راية العصيان ضد رعاة البقر، وكما حدث أيضًا عام ١٩٦٧، وإنما سوف تكون حربًا توسعية، بقصد تحقيق الهيمنة الصهيونية الكاملة على المنطقة.

خرج البعض من كُتّابنا الذين تعودوا التصفيق لكل دخيل أجنبى، عقب حرب رمضان يتحدث عن عصر الهيمنة . . وهذا غير صحيح . . فإسرائيل ورغم كل قوتها لا تزال تعيش وتدور فى فلك الإرادة العربية، مما لا شك فيه أنها هزمت فى ميدان القتال ثلاث دول عربية منذ أكثر من عشرين عامًا، وهى قد هزمت على دائرة المفاوضات منذ أكثر من عشرة أعوام أكبر دولة عربية فى المنطقة، رغم ذلك، ففى كلا الانتصارين لم تحقق إسرائيل أى غزو حقيقى، الغزو يعنى استئصال الإرادة المقاتلة، وفى كلا المعركتين لم تحقق تل أبيب شيئا من ذلك، فالانتصار الأول ارتبط بتردد إسرائيلى، ورخاوة قيادية فلم تجرؤ على أن تستأصل الإرادة المقاتلة، لم تعرف كيف تتبعها فى داخل وادى النيل لتسحقها، هذه الإرادة هى التى تصدت فى معركة العش، ثم فى حرب الاستنزاف، وهى إرادة مصرية خالصة، انتفضت فى أكتوبر عقب الهزيمة العسكرية بستة أعوام، لتزلزل الكيان الإسرائيلى الذى لم ينقذه إلا التدخل الأمريكى، فلندع جانبًا لغة المزايدات والكذب والاختلاق التى برعنا فيها نحن العرب، الجيش الثالث حوصر ولكن الهزيمة قد سجلها التاريخ، ولن تمحى من الذاكرة اليهودية،

كذلك الانتصار الدبلوماسى لم يكن حقيقيًا . . لقد ارتفعت إرادة الشعب المصرى تقول كفى . . واستئصال الرجل الذى قاد مسيرة الاستسلام . . وإذا كانت توابعه لا تزال تحكم فى أرض وادى النيل فهى تعيش فى خوف، وترتعد، تحسبًا لما هو قادم . . وهى تسير على وقع إرادة التحدى، وتنحنى إزاءها . . الذى يعنينا أن نرصده هو أن تل أبيب استطاعت أن تفتح لها منزلا فى القاهرة يأوى فيه سفير وأعوانه، وقد أحيط بهم سور الصين العظيم، ولكنها لم تستطع أن تخلق لها ولو حانوتا واحدًا فى تلك القاهرة، يؤمن أو يتصور أن إسرائيل قادرة على أن تكون لها علاقات سوية بشعب مصر .

وهى لذلك لا بد وأن تشن حربًا جديدة؛ لتحقيق تلك الهيمنة التى تسعى إليها منذ أكثر من ربع قرن، دون أن تنجح، متى؟ ولماذا؟

الإجابة عن السؤال الثانى أى لماذا؟ يسمح بتحديد الإجابة على السؤال الأول، والذى يدور حول تحديد لحظة هذه الحرب القادمة، كذلك فإن الإجابة الدقيقة والمحددة، لا يزال الوقت لم يحن بعد لصياغتها . . . . ولكن الإطار العام بما يخلق القناعة باحتمالات هذه الحرب القادمة جدير بأن نطرحه ونحدد عناصره الأساسية منذ الآن .

قبل أن نلقى بأنفسنا فى متاهات الإجابة على هذا السؤال وكيف أن إسرائيل وقيادتها تفكر جديًا فى حرب قادمة، يجب أن نلاحظ كيف أن هذا التفكير يعود إلى عام ١٩٧٣ وفى أثناء حرب أكتوبر المعروفة . . أحد العناصر الأساسية التى سيطرت على (كيسنجر) فى تدخله أثناء معركة أكتوبر، هو إعطاء إسرائيل فرصة إعادة البناء الذاتى والعسكرى للقيام بحرب جديدة، تحقق الأهداف والآمال اليهودية التى لم تحققها حرب ١٩٦٧ .

إن كيسنجر كان واثقًا من قدرة إسرائيل فى عام ١٩٧٣ ، وعقب الثغرة، التى هللوا بها وأحاطوها بعملية إخراج مسرحية، لما كان قد تردد فى التعامل مع الموقف على هذا الأساس . . وإن ما كشفته الوثائق بل ونفس تصريحات (هنرى كيسنجر) وأعوانه، كان الخوف على إسرائيل، وإن أكبر ما كان يخشاه، أنه وقد ولد على ضفاف قناة السويس الشعب المقاتل؛ الذى كانت الأمة العربية فى حاجة إليه، أن يبرز فى مصر جمال عبد الناصر جديد أشد صلابة من الزعيم الراحل . . وقد تعلم من أخطائه، وارتفع على

نقائصه، يستطيع أن يكمل التطور وبمساعدة الاتحاد السوفييتى، ومن ثم يتمكن من استئصال الوجود الصهيونى فى المنطقة، وهكذا كان الهدف الأمريكى هو إجهاض النصر الذى حدث ورغم أنه لم يكن سوى فى البداية، وقد نجح فى ذلك، بفضل قائد هش، بل وقيادة إستراتيجية متخاذلة، لم تكن على مستوى القيادة الميدانية التى اقتحمت القناة، ودمرت خط بارليف، وزلزلت العالم، منذ ذلك التاريخ وإسرائيل تستعد للحرب القادمة، واليوم أضحت ملامح ذلك واضحة للعيان.

لماذا لا بد وأن تلجأ الأسباب التى تستتر خلف إرادة القتال الإسرائيلية، ليست فى حاجة إلا إلى العين المدققة لتكتشفها:

أول هذه الأسباب: إن الشعب المحارب فى منطقة الشرق الأوسط قد ولد حقيقة وهو اليوم يعيش طفولته الأولى.. الأمة المقاتلة التى لا تعرف سوى دلالة واحدة، توجد اليوم فى جميع أجزاء الشرق الأوسط، لقد ولدت هذه الأمة فى وادى النيل، حيث وقف رجل الشارع وهو يتحدى، وجاء الجندى العراقى فأثبت أن هذه القدرة توجد فى كل مكان، لم يعد المقاتل فقط هو الرجل الشاب، بل أصبح كذلك الشيخ المسن، والمرأة التى عودتنا الخنوع والاستسلام، واكتمل كل ذلك بأبناء المقاومة فى فلسطين، لم يتردد الطفل والصبى أن يقف كل منهما أمام المتوحش المستعمر، الأمة المقاتلة قد ولدت وليست فى حاجة إلا إلى إكمال التطور، وعندئذ من يستطيع أن يوقف هذا التطور؟ يجب القضاء عليه، وهو لا يزال يانعًا لم يكتمل بعد تطوره.

السبب الثانى: يعود إلى الواقع الاقتصادى، إسرائيل تعيش أزمة اقتصادية عنيفة، وهى تعلم جيدًا أنها لن تستطيع أن تتخطى هذه الأزمة بقدراتها الذاتية، أيضًا الولايات المتحدة وهى تعيش أسوأ مراحل تاريخها الاقتصادى، لن تستطيع أن تقدم لإسرائيل سوى مساعدات محدودة، منذ أربعة أعوام أثير الموضوع علانية فى أروقة مجلس الشيوخ الأمريكى، وكانت النتيجة إنذارًا واضحًا لإسرائيل، أن تبحث لها عن مصادر جديدة، إسرائيل فى حاجة فى نهاية العقد القادم أى خلال قرابة عشرة أعوام إلى ثلاثة وثلاثين بليون من الدولارات سنويًا لو أرادت أن تحافظ على مستواها الاقتصادى الذى حددته لنفسها، وهو مستوى دول جنوب البحر المتوسط الفقيرة، الانتفاضات ضاعفت المشاكل، فهى سنويًا حسب التقديرات المعتدلة تكلف تل أبيب بليون من الدولارات،

وما هو أخطر من ذلك، أنها تقف عقبة ضد التنمية الحقيقية، سواء بسبب الاضطرابات أو تخلى العمل العربى الرخيص عن ممارسة المساندة للاقتصاد الإسرائيلى، سواء بسبب هجرة رأس المال من إسرائيل إلى الخارج، فضلا عن تجمد هذه الهجرة إلى داخل إسرائيل، حرب جديدة سوف تقود إلى ثلاث نتائج:

الأولى: طرد أهالى الضفة بصفة خاصة إلى أرض الأردن، ومن ثم تصفية هذه المشكلة ولو جزئيًا.

الثانية: استنهاض الهمم اليهودية والأوروبية فى الخارج لتقديم المساعدات والمعونات.

الثالثة: العودة إلى حالة التكتل القومى فى داخل المجتمع الإسرائيلى، الذى فقده ذلك المجتمع ولو نسبيًا عقب حرب لبنان.

السبب الثالث: ويعود إلى الانتفاضة الفلسطينية، إنها أخطر ما يواجه إسرائيل لماذا؟ لا نريد أن نطرح مشاكل جانبية، ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن الإرادة اليوم وما سوف يواجهها فى الغد هذه الانتفاضة، الثورة الفلسطينية هى أقدم الحركات الثورية فى العالم المعاصر، مضى عليها أكثر من نصف قرن، ومع ذلك لم تحقق أى تقدم، المخابرات الإسرائيلية استطاعت من خلال مسالك عديدة أن تخترق هذه المقاومة، جاءت الانتفاضة لتعلن حقيقة مزدوجة: الرفض يأتى من الأرض الفلسطينية، وليس من القيادات التى تجلس على المقاهى فى عواصم العالم، ابتداء باريس ولندن وغيرها، وإرادة الرفض من جانب آخر هى إرادة للجهاد بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معان، لقد ولدت الثورة الفلسطينية حقيقة مع هذه الانتفاضة وارتفعت إرادة المواجهة صريحة، واضحة، ليس فقط ضد المستعمر، بل وضد كل من يقف ضد التطور الطبيعى حتى ولو كان من نفس الأرض الفلسطينية.. إنها لن تعرف العودة إلى الوراء، أو قبول الحلول التوفيقية، وهى لذلك فى حاجة إلى حلول غير متداولة لاستئصالها، وهذا ما تعلمه جيدًا القيادة الإسرائيلية، وما يجعلها تقف أمام هذه الانتفاضة موقف الحيرة والتردد.. وهى لذلك سوف تتجه فى لحظة معينة عندما تجد أن الموقف لم يعد يحتمل سوى ذلك، إلى خلق حرب جديدة تصير ستارًا يسمح لها بتحقيق ما تريده وما لا تستطيع تنفيذه إلا فى جو استثنائى يمكنها من ذلك.

السبب الرابع: لهذه الحرب القادمة يرتبط بحقيقة التوليفة الحاكمة فى إسرائيل، فالسلطة الحقيقية فى داخل تل أبيب، تتكون من تآلف خفى بين ثلاث قوى، «الأولى» وهى القوة اليمينية التى استطاعت أن تتوسع وترتفع كما لم يحدث فى أى مرحلة من تاريخ إسرائيل، أسباب ذلك عديدة، ولكن يكفى أن ننظر إلى نتائج الانتخابات، ويجب أن نتذكر أن القوة الدينية ليست هى فقط الأحزاب الدينية «والقوة الثانية» الواضحة وهى القوى المحافظة التقليدية، والتى تمثلها كتلة ليكود.. أيضًا هذه القوة ليست مجرد أحزاب، إنها قوى اجتماعية يسودها مبدآن، التعصب العنصرى من جانب والإيمان بسيادة مبدأ الطلب والعرض فى الحياة الاقتصادية من جانب آخر، حتى حزب العمل بها يتجه فى نفس هذه القناعة، ثم «مؤسسة الجيش» أو المؤسسة العسكرية والتى تسودها القيادات المهنية، وقد خلقت من خلال حروب متتابعة التقاليد القومية، يربط جميع هذه القوى الرغبة فى القتال.. فالقوة الدينية تريد أن تحقق الأسطورة والقوى المحافظة تريد أن تخلق لنفسها أسواقًا جديدة، إسرائيل قد حققت تطورًا اقتصاديًا، وهى لا تجد أمامها أسواقًا حقيقية للانتشار.

السوق الأوروبية تقفل أمامها، بل إن إيطاليا واليونان تتزعمان حركة طرد حقيقية للغزو الإسرائيلى، وإسرائيل دولة محاصرة وقد فشلت فى غزو السوق المصرية بالأسلوب الذى تتبعه حتى اليوم، الحرب سوف تسمح لها بذلك، أما عن المؤسسة العسكرية فهى لا تستطيع أن تعيش دون انتصارات لتعيد إلى جيشها الهالة التى كانت قد خلقتها حوله فى حرب ١٩٦٧.

السبب الخامس: ويدور حول تكديس السلاح فى إسرائيل.. من المعروف أن تكديس السلاح فى أى مجتمع يشجع على الحرب، بل وقد يفرض الحرب، إيران ما كانت قد اندفعت فى حربها ضد العراق لولا التكدس الذى حدث فترة حكم الشاه، وتحت تأثير التوجه الأمريكى، من المعروف اليوم أن أحد أسباب الحرب العالمية الثانية هو التكدس المخيف للسلاح فى ألمانيا النازية، سوف نرى فيما بعد كيف أن هذا قد تحقق فى إسرائيل، السلاح المكدس فى إسرائيل لم يحدث له مثيل فى التاريخ حتى اليوم، شعب لا يتجاوز عدة ملايين قليلة واتساع مساحى محدود إلى حد لا يصدقه عقل، ثم تواجد للسلاح بل وللسلاح المتقدم بهذا القدر المخيف لا بد وأن يخلق جوًا

مشحونًا يقود ويدفع إلى القتال، وذلك يتضخم بشكل خاص، حيث يتحقق شرطان: «الأول» احتمال فقد هذا السلاح لأهميته فى مستقبل غير بعيد، «الثانى» وهو احتمال امتلاك الخصم المحتمل لسلاح يماثل أو يقترب من هذا السلاح المكدس.

السبب السادس: وينبع من المتغيرات الدولية، لم يكن الإطار الدولى فى صالح إسرائيل كما هو فى هذه اللحظة، وكما هو محتمل فى الأعوام القادمة وحتى عام ١٩٩٣ السبب فى ذلك يعود إلى متغيرات عديدة. . فالولايات المتحدة تشعر ولأول مرة فى تاريخها الحديث أنها فى حالة ضعف حقيقية، حلفاؤها يبتعدون عنها، اليابان تنظر إلى الولايات المتحدة بكثير من عدم القناعة والغربة فى الاستقلالية، بل إنها تشعر بإيمان أن مصالحها لم تعد تتوافق مع مصالح إمبراطورية القياصرة الجدد، ما أعلنه (فوكودا) فى مانيلا فى أوائل السبعينيات، وهو أن أمن اليابان القومى يجب أن تكون له السيادة فى منطقة جنوب شرق آسيا، أضحى حقيقة قائمة. . أوروبا الغربية الجديدة لم تعد تقبل تعاليم واشنطن صاغرة، بل إنها تعد نفسها بخطى قصيرة ولكن غير ثابتة، لتقود إنسانية العالم الجديد، عالم القرن الواحد والعشرين. أحلام (ديجول) فى طريقها للتحقيق، دول أمريكا اللاتينية الكبرى تستعد لتغزو قارة أمريكا الجنوبية ولتطرد منها استعمار أمريكا الشمالية، الاتحاد السوفييتى ينكفئ على مشاكله الداخلية وبصفة خاصة مشكلة الأقليات. . فى هذا الإطار لا بد وأن تحدث عدة نتائج.

الأولى: بحث الولايات المتحدة وحاجتها للصداقة، وهى لذلك سوف تزداد تشبثا بإسرائيل التى أثبتت الفاعلية والقدرة على الدفاع عن المصالح الأمريكية وكل شىء له ثمنه.

الثانية: ازدياد الاهتمام بالمشاكل الداخلية، وعدم التورط فى النواحى التى لا ترتبط بالواقع المحلى، وهو ما سوف يبرز واضحًا فى السياسة الأوروبية خلال الأعوام القادمة، هى لن تهتم بالمشاكل الخارجية، ولن تنغمس فى الصراعات الإقليمية، إلا بقدر ارتباط هذا بالتطور الوحدوى فى داخل القارة.

الثالثة: تضخم إرادة تحييد إسرائيل فى التعامل الدولى من الجانب السوفييتى. . فمشكلة القوميات التى تثور وبعنف، ترتبط بعنصر أساسى له أهميته بالنسبة لإسرائيل

وهو منح الأقليات والقوميات المختلفة فى الدولة الروسية مزيداً من الحقوق التى من بينها بالنسبة لكثير من تلك الأقليات الحق فى الهجرة، الأقلية اليهودية على رأس التشققات ولنتذكر أن هذه ليست فقط مشكلة اليهود، بل هى مشكلة جميع الأقليات التى تقع على حدود الاتحاد السوفييتى، سواء فى الجنوب أو فى الغرب، هناك عدة ملايين من الألمان والپولنديين يحنون ويتوقون إلى الهجرة، وهذا العنصر لا بد وأن يتدخل فى لغة التعامل بين موسكو وتل أبيب.

هذا الإطار العام الذى ليس سوى مقدمة فى تحليل جامدة، لا بد وأن يعقبه تحليل ديناميكى، يسعى إلى صياغة إجابة واضحة على مجموعة من التساؤلات.

الأول: ما هى الأهداف المباشرة التى سوف تسعى إلى تحقيقها إسرائيل من حربها القادمة؟

الثانى: متى سوف يتعين عليها ـ أى تل أبيب ـ أن تشن تلك الحرب لتحقق تلك الأهداف؟

الثالث: ما هى العناصر التى لا تزال تنقصها، فى إطارها الداخلى وكيف سوف تعمل على تحقيق تلك العناصر، وخلق الإرادة الصاعقة المتدفقة لتمزيق المنطقة لصالحها؟

أسئلة ثلاثة يجب أن نجيب عليها، ولكن قبل تلك الإجابة لا بد من العودة إلى حقيقة «المؤسسة العسكرية» من جانب، وإلى الترسانة المكدسة فى داخل إسرائيل من جانب آخر؛ لأن تحليل هذين العنصرين هو الذى سوف يسمح لنا بصياغة واضحة لتلك الإجابة.

سبق أن رأينا خصائص المنطق العسكرى الإسرائيلى الجديد، والذى محوره التمييز بين سؤالين: متى يجب أن تحارب إسرائيل؟ ثم كيف يجب أن تحارب؟ الإجابة على السؤال الثانى هى فقط من اختصاص العقل العسكرى الإستراتيچى، الذى لا يجوز أن يتدخل فى منحنياته سوى القدرة والمؤسسة العسكرية، وقد توقفنا إزاء نتيجتين: إحداهما استمرار للتقاليد السابقة، وهى ضرورة التفوق الإسرائيلى

على جميع الدول العربية، والثانية وترتبط بالنتائج المترتبة على ذلك من حيث نوعية السلاح.

متغيرات جديدة فرضت هذه الصعوبة

أولا: قدرة الشعوب العربية على الحصول على السلاح أيضًا المتقدم، بحيث أضحت الفجوة من حيث نوعية السلاح التقليدى بين إسرائيل وأعدائها تكاد تكون قد تقلصت، بل فى بعض الأحيان هناك دول عربية ومعادية لإسرائيل تملك سلاحًا أكثر تقدمًا - نقصد السلاح التقليدى - من السلاح الذى تملكه إسرائيل.

ثانيًا: حدوث تغيرات فى ميدان المعركة المحتملة وذلك مرده تهديدات جديدة وتطورات عنيفة على الجيش الإسرائيلى، أن يواجهها ويستعد لها، إن إسرائيل لو قدر لها أن تحارب فى الإطار الإقليمى الحالى، فلن نستبعد أن هذه الحرب سوف تشمل جميع دول المشرق العربى دون استثناء ليبيا، ومعنى ذلك أن مسرح العمليات سوف يمتد إلى جميع أجزاء البحر الأحمر وكذلك أغلب أجزاء البحر المتوسط الشرقى وبصفة خاصة حول سواحله الجنوبية والشرقية.

ثالثًا: كذلك فإن هناك إحساسًا متزايدًا بقيود ضخمة على قدرة إسرائيل، ليس فقط بمعنى القدرة على الإنفاق، بل وكذلك بمعنى القدرة على الحركة، فموارد إسرائيل محدودة ومهما قيل عن مساعدة أمريكية فهى لا تقاس بموارد خصومها، أو على الأقل بعض خصومها، وإقليمها محدود من حيث الاتساع المساحى، لا يسمح لها إلا بحدود معينة للمناورة، بل وكذلك للاستعداد للتعامل مع الأعداء المحيطين بها، لقد كان ضيق الإقليم قوة لإسرائيل فى حرب ١٩٦٧، بل وكذلك ورغم الاتساع المعروف فى حرب ١٩٧٣ لأنه يسمح لها بنقل قواتها بسرعة وبصفة خاصة عندما تجمد الموقف فى بعض القطاعات، بينما تتفرغ لاستئصال القدرة العسكرية فى القطاعات الأخرى، وهو ما فعلته حتى حرب أكتوبر، هذه القوة الآن قد انقلبت ضعفًا، (أ) بسبب سلاح الصواريخ وهو ما سوف نراه تفصيلا فيما بعد (ب) التقدم الرهيب فى أدوات القتال الجوى، ولنذكر على سبيل المثال أن ضيق الإقليم الإسرائيلى، والذى لا

يسمح إلا بوجود عدد محدود جدًا من المطارات الصالحة لاستقبال واستخدام الطائرات الحديثة، والمتوقع استخدامها فى القتال القادم، لا بد وأن يخلق عقبة ضد حرية الحركة، وبصفة خاصة ضد إمكانيات إنشاء عدد هام من تلك المطارات فى الأرض الإسرائيلية.

رابعًا: استخدام الصواريخ لا بد وأن يضع قيدًا آخر وبصفة خاصة بالنسبة لدعوة الاحتياطى، الذى يقوم عليه الجيش الإسرائيلى، حتى لو اقتصر على استخدام الصواريخ القصيرة المدى، فإن إمكانيات الأردن بهذا الخصوص قاتلة، بصدد إسرائيل، وخصوصًا فإن الفوضى التى سوف يخلقها هجوم مفاجئ بالصواريخ القصيرة المدى من الأرض الأردنية وقد ساندتها الصواريخ البعيدة المدى من العراق، سوف يخلق حالة من الاضطراب والفوضى التى سوف تمنع إسرائيل من توظيف قدراتها وكل ما تملكه من إمكانيات.

خامسًا: ولا يجوز لنا أن ننسى ما تملكه العراق من قدرة، أثبتت فاعليتها وبصفة خاصة فى ميدانين: الصاروخى والسلاح الكيماوى، وكلا هذين الميدانين كانت تستأثر بالتفوق فيهما إسرائيل، مما لا شك فيه أن العراق لم تصل إلى مستوى إسرائيل، كذلك فالقيادة العراقية تميل إلى المبالغة، ولكنها قطعًا قادرة بفضل الكم على أن تنزل بإسرائيل لطمات لم تعهدها تل أبيب.

سادسًا: أضف إلى ذلك أن فكرة النوع فى مواجهة الكيف، أى القلة فى مواجهة الكثرة تملك قيودها، هناك حد لذلك وكبار القادة يعلمون بهذا الخصوص حقيقتين لا موضع للمناقشة بخصوص أى منهما، الأولى: أن الجيش المنتصر فى الخاتمة هو الجيش الكبير العدد والمتفوق كما ولو فى حدود معينة، الثانية: أن الكم فى لحظة معينة وعند نقطة معينة يتحول فى ذاته إلى كيف، جيش مكون من ألفين أقوى من جيشين كل منهما مكون من ألف، الكم هنا قد تحول إلى كيف.

كل ذلك دفع الفكر العسكرى الإسرائيلى إلى:

أولا: جعل أساس الإستراتيجية الإسرائيلية الخيار النووى.

ثانيًا: التطوير العنيف فى كلا السلاحين الكيميائى والجرثومى.

ثالثًا: وضع قواعد تسمح باستخدام سلاح الصواريخ بأقصى فاعلية: ليس فقط كسلاح هجومى بل وكسلاح دفاعى، يسمح بالتحكم فى القدرة الصاروخية العربية.

رابعًا: إضافة مبدأ تطوير السلاح البحرى، والتحكم المتزايد فى المداخل البحرية.

خامسًا: إدخال مفهوم الحرب النفسية كعنصر أساسى من عناصر الإعداد للقتال، ليس فقط بالنسبة لتحصين المقاتل اليهودى، بل وكذلك لاستيعاب العربى المقيم فى داخل إسرائيل وتحطيم العربى المقيم خارج إسرائيل.

* * *

(٧)

السلوك العدوانى الإسرائيلى

«لم يعد من الممكن الصمت، بل إن الصمت أضحى جريمة، يجب أن يعلم كل مصرى ذلك الذى يحاك حوله، هناك حرب قادمة فى هذه المنطقة، التى تنتمى إليها إسرائيل ومن خلفها الصهيونية، وحولها تقف جميع القوى الدولية، راضية وسعيدة تعد لحرب كاسحة فى هذه الأرض التى ورثناها عن آبائنا، والتى لن يستطيع أحد أن ينكر علينا الحق فى الاستئثار بها وطرد كل من تخول له نفسه أن يضع قدمه فيها، هذه الحرب القادمة تعد لها جميع القوى التى تناصبنا العداء، بل وكذلك أولئك الذين يتظاهرون بالصداقة، لا يجوز أن تخدعنا ألفاظ (ميتران) الرئيس الفرنسى المعسول، إنها نفس القصة التى ساهمت فيها فرنسا عام ١٩٦٧ عندما حذرت الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ومنعته من أن يبدأ بالضربة الأولى، ولماذا نذهب بعيداً إلى حزب (ميتران) وأساتذته وزملائه هم الذين قادوا أوروبا ضد مصر عام ١٩٥٦؟ وأليس (جى دى موليه) هو الأب الروحى، وذلك دون الحديث عن (منديس فرانس)؟ وهل يستطيع (ميتران) أن ينكر إعجابه بتل أبيب، والتى كان أول رئيس جمهورية فرنسى يزورها ويقدم لها هدية المساندة فى المفاعلات النووية، التى لن تحصد سوى رؤوس المصريين؟ وأليست ألمانيا الغربية هى التى تبنى الأسطول الجديد لإسرائيل، والذى سوف يصول ويجول فى البحر، وشرق البحر المتوسط، بل وقد يكون مصدراً لإطلاق قذائف جرثومية فى صحراء مصر الشرقية، لتتجه إلى استئصال الحياة من وادى النيل؟ ولكن مهلا فسوف نرى كل ذلك فى حينه بالتفصيل الكافى.

الذى يعنينا هو أن نصرخ محذرين قياداتنا وهى تجلس صامتة تنتظر الضربة وهى تدعو ربها فقط ألا تصيبها فى مقتل، كل حاكم فى العالم العربى لم يعد يعنيه سوى أن

ينقذ رأسه، ويعيش ما تبقى له من عمر فى يسر ورفاهية، لقد تحولت قياداتنا إلى أغنام، لا يعنيها إلا أن يذبح غيرها، من أين أتت تلك القيادات المخوخة؟ لقد أفرزتها ثورة جمال عبد الناصر، علم قياداتنا الجبن، وغرس فى نفوسهم الخوف، وأحالهم إلى نعاج، لا تتقن إلا فن الصياح، إنه هو الذى أثبت هذه العناصر الهشة فى جميع أنحاء العالم العربى، فهو أذل قيادات مصر الخالدة بدلا من أن يرفعهم إلى مصاف مصر، أم الحضارة فقد نزل بمصر إلى مستوى بدو الصحراء وهكذا كانت الكارثة إسرائيل تلعب أساسًا على هذه الورقة.

منذ أكثر من عشرين عامًا، ظهر علم جديد فى نطاق التحليل السياسى للسلوك الجماعى نستطيع أن نسميه علم الحرب، محور هذا العلم هو السؤال: لماذا يشن مجتمع معين الحرب على مجتمع آخر؟ ما هى العوامل المختلفة التى تفرض على مجتمع معين يناصب مجتمعًا آخر العداء، بل وأن يسعى بكل وسيلة لاستئصاله؟ هل هى فقط مشكلة صراع من أجل الحياة، أم أن هناك متغيرات دفينة أكثر عمقًا من مجرد الخلاف أو التنافس على قطعة أرض، أو على مصدر من مصادر الثروة؟ هذا السؤال طرحه الفكر السياسى قبل ذلك، ومنذ الحرب العالمية الثانية بخصوص السلوك الألمانى خلال القرنين الماضيين، فالمجتمع الألمانى وقف من المجتمعات الأخرى المحيطة به ـ وبصفة خاصة المجتمع الفرنسى، ورغم الوحدة الحضارية والتماسك التاريخى بين المجتمعين خلال العصور الوسطى ـ موقف العداوة العنيفة حتى أن القرنين التاسع عشر والعشرين لا يعرفان سوى حروب متتابعة بين المجتمع الألمانى وجيرانه الفرنسيين، تميزت بالعنف والتعدى الذى ليست له سوابق مماثلة، خلال فقط قرابة ستين عامًا عرفت فرنسا ثلاثة اعتداءات لم تعرف لها مثيلا من قبل: (حرب السبعين) ثم (الحرب العالمية الأولى) وأعقبتها (الحرب العالمية الثانية) ورغم أن أى محلل كان موقنا بأن هذه الحروب لن تنتهى إلا بالهزيمة لألمانيا، لأسباب متعددة ليس هذا موضع التفصيل بخصوصها، فإن المجتمع الألمانى كان فى اللحظة التى يشعر فيها بأن أبواب النصر قد أوصدت أمام الجيش الألمانى نجد هذا المجتمع يبدأ يستعد لحرب قادمة، الظاهرة تتكرر فى صورة أخرى، ولكن لتعكس نفس النموذج من جانب الشعب اليابانى، طيلة القرن العشرين، وحتى الحرب العالمية الثانية كانت هذه الأمة التى هى تاريخيًا جزء من

الحضارة الصينية، مصدر اضطرابات واعتداءات على جميع شعوب شرق آسيا، وبصفة خاصة الشعب الصينى.

الفكر الأمريكى بمنهاجيته السلوكية طرح السؤال: لماذا توجد هذه الشعوب التى يسيطر عليها السلوك الاستفزازى والعدوانى وتصير مصدرًا دائمًا للكوارث والحروب، بل وفى بعض الأحيان دون سبب وجيه مقنع؟ هل هو الطابع القومى؟ هل هو الخصائص الجماعية للفرد التى تجعل ذلك المجتمع يسلك بطريقة حيوانية لا تجد لها تفسيرًا إلا فى غرائز وحشية تميز مثل ذلك المجتمع؟

يحدثنا كاهن العالم الأمريكى الأشهر؛ الذى كان فى لحظة معينة على رأس «راند كوربوريشن» عن الأبحاث العديدة التى قام بها هو وفريق أمريكى من الباحثين فى المجتمع اليابانى، لاكتشاف خصائص ما أسماه العقلية اليابانية.

لا تعنينا بهذا الخصوص التفاصيل؛ ولكن الذى يعنينا أساسًا هو تحليل ما يسمى السلوك العدوانى، الذى هو أحد ما يميز هذه الشعوب، التى تعودت أن تشن الحرب بسبب أو دون سبب وأن تسلك فى تعاملها القتالى سلوكًا معينًا لا يستطيع المجتمع المتحضر أن يتقبله.

المجتمع الإسرائيلى والسلوك العدوانى

ونسرع منذ البداية لنحدد بأن المجتمع الإسرائيلى هو تطبيق صريح واضح لهذا السلوك العدوانى وهذا يقودنا إلى تحديد أحد الأسباب الأساسية التى سوف تفرض الحرب فى منطقة الشرق الأوسط، بل وتقودنا إلى القول وعن قناعة بأنه طالما وجدت إسرائيل فى المنطقة فإنها لن تتخلى عن السلوك العدوانى الذى يعنى الحروب المستمرة، إسرائيل يجب أن تقلم أظفارها وكما فعلت الولايات المتحدة مع ألمانيا، وكذلك مع اليابان، فإن العالم العربى يجب أن يفعل مع إسرائيل، والتقليم أو التهذيب ليس له سوى منهاجية واحدة، ولكن تفصيل ذلك لا يزال سابقًا لأوانه.

السلوك الإسرائيلى هو خاتمة لثلاثة نماذج سلوكية استطاعت أن تندمج فى إطار واحد لتقدم النموذج الذى نعايشه، وسوف نعايشه خلال الأعوام القادمة، وهو ما نستطيع أن نسميه سلوك الصابرا.

(أ) أول مصدر تاريخى هو السلوك اليهودى : اليهودى طيلة تاريخه الطويل كان شخصًا يتميز أساسًا بالازدواجية والتلون والجبن، اليهودى ظل طيلة تاريخه لا يعرف سوى الإباحية المطلقة، وعبادة المال وعدم الولاء، ولكن بصفة خاصة فى أنه لا يعرف أى نوع من القيم والأخلاقيات .

(ب) المصدر الثانى هو السلوك الأمريكى الذى عاش فى جنباته اليهودى وتطبع به، الأمريكى الذى عايشه اليهودى، هو حفيد المجرم الذى هرب من أوروبا وحاول أن يبنى نفسه مستندًا إلى القوة البدنية، ولا يعرف أى قيم سوى العنف وسيادة ومبدأ البقاء للأصلح .

(جـ) المصدر الثالث هو النازية، فى ألمانيا العنصرية عاشت ونبتت القيادات اليهودية، التى صاغت الصهيونية، رغم أن النازية هى التى استأصلت يهود أوروبا، فإن هؤلاء لم يتطبعوا ولم يتشبهوا إلا بأولئك الذين ذبحوهم .

هذه المصادر الثلاثة تجمعها صفة واحدة وهى العدوانية، فاليهودى بتاريخه الطويل عدوانى، وإن احتفظ بتلك الصفة فى قناعته، والأمريكى بأصوله الإجرامية يعبر عن هذه الصفة بوضوح أما النازية فهو يفخر بها .

الدراسة العلمية للسلوك الإسرائيلى

السلوك الإسرائيلى أخضع لدراسات ميدانية عديدة، بل إن هذه الدراسات بدأت قبل إنشاء إسرائيل ومن جانب علماء يهود لهم اسمهم، ولهم وزنهم، ونذكر من هؤلاء على وجه الخصوص العالم الأشهر « لوين» الذى كان أحد من ساهموا فى تأسيس الحركة الصهيونية، والعجيب أن العالم العربى لم يعرف حتى اليوم دراسة واحدة حقيقية ومتكاملة، عن ذلك الطابع القومى الإسرائيلى، الذى يتعين علينا أن نتعامل معه، ولكن هذا حديث آخر نتركه جانبًا ولنا عودة إليه .

فلنلخص النتائج والتى قدمها غيرنا؛ لنفهم على ضوئها حقيقة التطورات التى يعيشها فى هذه اللحظة المجتمع الإسرائيلى .

أولى هذه النتائج : خصائص السلوك اليهودى، اليهودى فى قناعته الداخلية تسيطر عليه عناصر ثلاثة، العنصر الأول وهو الكراهية الذاتية، العنصر الثانى وهو الخوف

العنصر الثالث وهو السلوك الاستفزازى، الكراهية الذاتية وهى العقدة التى استطاع العالم السابق ذكره أن يكتشفها ويحللها وتجعل اليهودى يكره نفسه، وكلما ارتفع فى حياته الاجتماعية ازدادت تلك الكراهية، هذه الكراهية تعكس نفسها على كل ما حوله، إنه ينشر المخدرات، ويشجع الإباحية، بل ويجعلها أحد عناصر سلوكه نتيجة لهذه الكراهية وهو فى قناعة نفسه خائف جبان، لا يجوز أن يخدعنا حديثه أو تظاهره بالقوة والقدرة فى أعمق أعماقه هو يخاف كل شىء بل يخاف من نفسه، وهو لذلك استفزازى وعدوانى فى كل لحظة أو موقف يشعر فيها بأنه أقوى من غيره، لم يعد سرًا خافيًا أن من نشر الإباحية فى مجتمع غرب أوروبا وأمريكا؟ هو الصهيونية ومن قاد حركة المخدرات، هم زعماء الصهيونية ومن يقف خلف الإرهاب الدولى؟ هم أيضًا قادة الصهيونية بما فيهم قادة إسرائيل، لا أزال أذكر حديث المونسنيور بولديللى فى أواخر الخمسينيات والذى كان يشغل المسئولية الحقيقية عن سياسة الفاتيكان الخارجية وقد قدر لى بحكم إقامتى فى دير الفرنسيسكان بروما، التعامل الوثيق معه وهو ينبهنى إلى أن مصدر الإباحية التى سوف تعم أوروبا هى الحركة الصهيونية، وسوف تتأكد نبوءته عقب ذلك بقرابة ربع قرن على لسان نفس قادة الفاتيكان، ولكن هذا حديث آخر ليس هذا موضعه.

ثانية هذه النتائج: وترتبط بالسلوك الإسرائيلى، خلال الفترة التى أعقبت إنشاء الدولة وحتى هذه اللحظة فى النطاق الدولى، إن ما يسيطر على هذا السلوك هو ما أسميناه فى بعض مؤلفاتنا «عقدة الاغتصاب» الإسرائيلى، قد تراكمت فى وعيه الباطن، نتيجة خبرة المجتمع اليهودى فى المجتمعات الغربية، وبصفة خاصة فى شرق أوروبا، الشعور الدفين اللاواعى بأن أى شخص ينتمى إلى مجتمع الأغراب، لا يسيطر عليه فى التعامل معه إلا الرغبة فى اغتصابه، وهكذا إذا تقدم يسلم عليه، فهو لا يرى فى ذلك إلا الرغبة فى احتضانه ومنعه من القدرة على الحركة، وإذا أراد أن يقبله، فهو إنما يريد أن يعميه عن أن يرى الأعداء، وهم يسعون إلى اغتياله، عندما ذهب الرئيس السادات لزيارة إسرائيل تصورت القيادة الإسرائيلية وعن قناعة حقيقية أن الرئيس المصرى جاء بطائرة مملوءة بالألغام لتفجيرها فى الدولة العبرية.

النتيجة الثالثة: أنه فى كل حرب لا بد من أن توجد على الأقل دولة تتميز بالسلوك العدوانى، هذه الطبيعة العدوانية وحدها هى التى تفرض الصراع، لتحيل العلاقات

التى يجب أن تكون سليمة إلى حالة التوتر والصدام، السلوك العدوانى لا يعنى فقط فرض الحرب، ولكن ما هو أخطر من ذلك السلوك، أثناء وعقب القتال، أنه ينسى جميع القيم ويصير وقد سيطر عليه فقط الرغبة فى إذلال من يتعامل معه والقضاء على كل آدمية له.

النتيجة الرابعة: وهذه هى التى تعنينا على وجه الخصوص: السلوك العدائى يستر خلفه جبنًا حقيقيًا، الجبن فى مثل هذا السلوك يتضمن فى حقيقة الأمر عناصر ثلاثة من جانب صاحب هذا السلوك:

العنصر الأول: يشعر بالتفوق على الطرف الآخر، والقدرة على القضاء على من يتوجه ضده صاحب السلوك العدوانى، ولو تصور صاحب هذا السلوك أن الطرف الآخر أقوى منه، أو فى مستواه من القوة فهو لن يسلك سلوكه العدوانى، بل ينقلب إلى حمامة وديعة.

العنصر الثانى: فى هذه الطبيعة الجبانة، هو أنه يقدم على سلوكه العدوانى بوحشية، لا مثيل لها، بل هو يسحق خصمه دون تردد، وليس لمجرد تحييده أو إثبات تفوقه، لا يسعده إلا رؤية خصمه تحت قدميه.

فى جامعة ميتشيجان أن آربور وفى معمل ديناميات الجماعة أجريت إحدى التجارب بهذا الخصوص، حيث وضعت مجموعات متعددة من الديوك والفراخ التى تتميز بالشراسة ولكن فى مستويات مختلفة من حيث القوة البدنية، فلوحظ أن الأقوى يتجه إلى الأقل قوة يضربه ويصيبه بعنف، وعندئذ فإن ذلك الذى ضُرب لا يحاول حتى الدفاع عن نفسه، أو منازلة من ضربه، واعتدى عليه، بل يتجه إلى الفريق الآخر الأقل منه قوة بدنية ينازله ويصيبه، وهكذا دواليك، الأقوى يضرب الأضعف، والأضعف يتجه لضرب الأكثر ضعفًا.

العنصر الثالث: وهو الخوف، صاحب السلوك العدوانى فى قرارة نفسه وفى داخل مشاعره هو خائف، وهو لا يناصب إلا من هو أقل منه قوة لأنه فى جوهره يخاف الآخرين، إنه يعتقد وعن قناعة مرضية بأنه إن لم يفعل ذلك فسوف يخضع عاجلا أو آجلا إلى نفس المصير الذى يعده هو لخصومه، لا يؤمن إلا بالقوة ولذلك لا يخشى إلا من هو أقوى منه.. الرعب والسلوك القيادى فى المجتمع الإسرائيلى.

اليهودى لم نعرف عنه فى تاريخه الشجاعة، عاش دائمًا فى ذلك، وهو يُضرب بالنعال من كل صوب، لم يذكر لنا التاريخ له بطولة أيّا كانت، وهو اليوم لم يختلف، يجب أن نفهم ذلك جيدًا، فى أثناء حرب الأيام الستة كان قائد الدبابة يربط فيها بالسلاسل، يحدثنا مراسل مجلة (دير شبيجل) الألمانى الذى رافق قوات تل أبيب فى صحراء سيناء، أنه عندما كانت المعركة تتوقف وتغادر القيادات المركبات المصفحة يلحظ بكثير من الدهشة كيف أن خلف تلك القيادات وأسفلها كان مبللا وممتلئًا بالروث، وذلك فى مواجهة الجيش المصرى الذى كان يجرى أمامهم حافى القدمين بعد أن ملأ الصحراء بأحذيته، هذه هى حقيقة اليهودى والتى برزت واضحة فى حرب لبنان.

الرعب هو الذى يسود القيادات الإسرائيلية، والرعب سلاح بحدين، فهو يدفع تلك القيادات إلى الاعتماد على السلاح الذى يبرز بوضوح التفوق الإسرائيلى، بل وهو الذى يدفع تلك القيادات إلى نسيان جميع القيم والأخلاقيات، سواء فى اختيار السلاح أو استخدامه، جميع القيادات العسكرية ترفض أو لا تميل إلى استخدام السلاح البيولوجى أو الكيميائى، يقال عادة بأن ألمانيا خسرت حربين؛ لأنها رفضت أن تستخدم ذلك السلاح.

إلا القيادات الإسرائيلية والتى كما سوف نرى تجعل هذا السلاح محور تنظيمها القتالى، إنه ليس فقط أحد الأسلحة بل إنها أدخلته جزءًا أساسيًا فى كل تشكيل قتالى، وهو من جانب آخر يدفع بتلك القيادات للمغامرة التى ليس مردها ومصدرها وضع الحسابات ولكن مصدرها الحقيقى الخوف من أن تفلت من أيدى القيادات فرصة التفوق.

إستراتيجية التعامل القتالى فى الإدراك الإسرائيلى

سبق أن رأينا الأسلحة التى سوف تستند إليها إسرائيل فى حربها القادمة، سلاح نووى يصاحبه سلاح كيماوى، يتقدم كليهما سلاح صاروخى دفاعى، ويرافقهما سلاح بحرى ويسيطر على الجميع السلاح النفسى فضلا عن الأسلحة المعتادة التى استخدمت فى حروبها السابقة، الذى يعنينا بهذا الخصوص أن نذكر به أمرين:

الأول : أنه بقدر أن لكل سلاح من هذه الأسلحة إستراتيچية محددة بقدر أن هناك إستراتيچية عامة تضم جميع هذه الأسلحة فى تعامل ديناميكى معين .

الثانى : أن هذه الإستراتيچية الكلية والشاملة تتحكم ، ليس فقط فى سير المعركة وميدان المعركة وأسلوب القتال ، بل وكذلك فى لحظة القتال بما يعنيه ذلك من تحديد لأهداف القتال .

فلنقف أولا أمام إستراتيچية التعامل مع كل سلاح ، قبل أن نلقى بأنفسنا فى مشاكل تحليل الإستراتيچية الكلية الشاملة ، التى وحدها تسمح بفهم خصائص الإدراك الإستراتيچى الصهيونى للحرب القادمة .

كل من هذه الأسلحة يملك إستراتيچيته المستقلة ، ورغم أننا لن نتعرض لأى من هذه الأسلحة مؤقتًا وبصفة خاصة فى ضوء الإستراتيچية الكلية التى تسيطر على استخدام منظومة هذه الأسلحة الخمسة ، إلا أننا يجب أن نذكر بعض الأمور :

الأمر الأول : أن أيّا من هذه الأسلحة الخمسة لم يبرز فى صورة واضحة فى الإدراك الإسرائيلى المقاتل إلا عقب حرب لبنان ، وقد كان (لشارون) فى ذلك دور خطير والذى رغم ابتعاده الظاهرى عن وزارة الدفاع يظل هو الممثل الحقيقى للمؤسسة العسكرية فى مواجهة القوى السياسية .

الأمر الثانى : والذى يدور حول الفصل بين السؤالين : متى يجب أن نقاتل؟ وكيف يجب أن نقاتل؟ ورغم أن هذا الفصل واضح ، إلا أنه يجب أن نتذكر أن السؤال الثانى لا بد وأن يطغى على السؤال الأول ؛ لأن كيفية القتال ، وأسلوب القتال ، والسلاح المستخدم فى القتال لا بد وأن يفرض قيوده على لحظة القتال ، وهكذا فإن الفكر العسكرى ، ومقتضيات الأمن العسكرى تنتهى بأن تطغى أو على الأقل أن تقيد من الخيارات السياسية ، لقد انتهى الوقت الذى كانت فيه القيادة العسكرية تنصاع لقرارات القيادة السياسية ، كما حدث فى حرب الأيام الستة أو حرب أكتوبر ، إن المستقبل يجب أن نفهمه على ضوء حرب لبنان ودلالاتها .

الأمر الثالث : أن الأسلحة والأدوات القتالية السابق ذكرها إلى جانب التطور العام فى المنطقة ، كان لا بد وأن تفرض التوسع فى مسرح العمليات ، فمما لا شك فيه أن

دخول الأردن فى حرب مع إسرائيل، سوف يقود جميع دول مجلس التعاون العربى دون استثناء مصر إلى ميدان المعركة، ووجود اليمن يعنى امتداد ميدان القتال إلى جميع أجزاء البحر الأحمر، وبصفة خاصة حيث اليمن الجنوبى يمثل مركز الثقل بالنسبة للاتحاد السوفيتى، الذى يواجه إسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة والمشاركة السورية سوف تقود بدورها إلى موقف ليبى وإيجابى. . وبطبيعة الحال قد يؤدى ذلك إلى تكتل جميع القوى المتصارعة داخل لبنان، بل إننا سوف نرى فيما بعد أن إسرائيل تخطط لما هو أبعد من ذلك، الذى يعنينا مؤقتًا أن نذكر به أن هذا التطور فى السلاح المكدس فى إسرائيل يرتبط بأمرين:

الأول: حقيقة الإستراتيجية الإسرائيلية للقتال القادم.

الثانى: خصائص وأبعاد ميدان المعركة المحتملة.

فلنقف مؤقتًا ليكتمل الحديث حول القنبلة النووية التكتيكية.

* * *

(٨)

«السلاح النووى وتطور العقيدة القتالية الإسرائيلية

من إستراتيچية الردع فى عام ١٩٧٣ ...
إلى إستراتيچية الانتحار فى حرب لبنان ١٩٨٢...
إلى إستراتيچية الهجوم فى الوقت الحالى

مشكلة التحليل الإستراتيچى من أعقد الموضوعات التى يتعين علينا التعرض لها، ورغم أن الثقافة الإستراتيچية كعلم تخصص له تقاليده وقواعده من أحدث العلوم، الذى لا يزال يبحث عن رجاله، إلا أنه كفكر وممارسة وجد منذ أقدم العصور، فالإستراتيچية فى أوسع معانيها هى فن التعامل مع المشاكل، والتعامل مع المشاكل يفترض مسبقًا التفكير والتصور والتأمل، أو بعبارة أدق الإدراك المسبق، ولعله ليس من قبيل المصادفة أن نلاحظ أن أعظم القادة الإستراتيچيين ينتمون إلى الماضى، وعلى وجه التحديد إلى العصور القديمة، فالحضارة الرومانية قدمت لنا سادة العالم فى التصور الإستراتيچى، لقد عاشت الحضارة الأنجلوسكسونية على مفاهيم قياصرة روما، بل ولم يكن سر نجاح الدولة العثمانية إلا هضمها لمفاهيم القياصرة، وأولئك الذين يحكمون فى واشنطن، رغم كل ادعاءاتهم هم طلبة مطيعون لتلك المفاهيم، لم يستطيعوا الفكاك منهم. . وقبل قياصرة روما عرفنا الإسكندر الأكبر فى اليونان وكليوباترة فى مصر، وكلاهما ينتمى إلى الثقافة الهللينية. . وفى أرض الفراعنة خرج أكثر من عملاق واحد، ونستطيع أن نذكر (تحتمس) و(رمسيس) وكلاهما يعترف له الفكر المعاصر بالقدرات الفكرية الخلاقة، بل إن (أيزنهاور) عندما حاول أن يعرف كيف يجب التعامل مع منطقة الشرق الأوسط، لم يجد مساعدوه سوى رمسيس الثانى يسألونه.

كيف يجب أن تتم الصياغة الإستراتيجية للسلوك الدولى فى هذه المنطقة؟ رغم ذلك فإن علم الإستراتيجية لا يزال ينقصه الكثير من عناصر التقدم والكمال . . على أن أخطر ما يجب أن نلاحظه، أن الفكر الإستراتيجى فى العالم العربى بصفة خاصة على قسط ضخم من التخلف . . يكفى أن نتذكر أن هذه المادة لا وجود لها فى أى تعليم جامعى، حتى فى الكليات المتخصصة، لماذا؟ سؤال آخر جدير بنا أن نتصدى له . ولكن ليس هذا موضعه . . فلنتذكر فقط أن من يتعامل لدينا مع المشاكل الإستراتيجية . . يعكس حالة التردى والهوة الفكرية التى وصلنا إليها، فى أغلب الأحيان نجد أنفسنا أمام شخص فاشل فى تخصصه، فوجد فى هذا العلم بابا واسعًا يستطيع أن يدخل من خلاله . . ليس هدفنا فتح الجروح، ولكننا نريد فقط أن نضع النقط أسفل الحروف، ونحن بصدد تحليل بعض المشاكل الإستراتيجية التى تسيطر على الفكر الإسرائيلى، ولنتذكر أيضاً مؤقتًا أنه فى جميع المعارك التى خضناها عام ١٩٥٦ ثم عام ١٩٦٧ وأخيراً عام ١٩٧٣ لم يكن لدينا فكر إستراتيجى، أو على الأقل كان فكرنا الإستراتيجى ليس على مستوى التعامل الحركى، وإن هذا أحد أسباب الهزيمة، دقة الفكر الإستراتيجى وقدرته على تخطى مشاكله، أحد عناصر القوة فى الجانب الإسرائيلى .

ومن ثم يجب أن نلاحظ منذ البداية أن التحليل الإستراتيجى له مستوياته، وكل من هذه المستويات يملك وظيفة، ولا يجوز أن نتصور أن أحد المستويات يغنى عن المستوى الآخر . . فى إطاره العام، وبكثير من التبسيط، هناك ثلاثة مستويات، كل منها علم خصائصها . . الأول وهو المستوى القومى، أو ما عبر عنه بالإستراتيجية العليا . . هذه تعنى تحديد الأهداف القومية، أى الأهداف العليا، ثم ترتيب هذه الأهداف بطريقة تصاعدية، تسمح بتحديد الأهم فالأقل أهمية، وأخيراً تصور محدد، ليس فقط للبدائل لكل من هذه الأهداف، بل وكذلك لحدودها بمعنى الحد الأقصى الذى لا يجوز تجاوزه، والحد الأدنى الذى يجب أن تقف عنده التنازلات، كذلك يدخل فى هذه الدائرة عملية صياغة الأهداف كخطة صالحة للتنفيذ، سواء من حيث مضمونها أو من حيث مداخلها، وكذلك أدواتها، هذه الدائرة تتضمن أيضا ما يسمى بالأمن القومى؛ الذى هو أحد عناصر الإستراتيجية القومية، هذا المستوى الأول يعقبه المستوى الثانى، والذى يدور حول قطاعات الدولة، فى كل قطاع من قطاعات الدولة

هناك إستراتيجية مستقلة ومتميزة تندرج فى إطار الإستراتيجية العليا، ولكنها تستقل عنها، دون أن تتعارض معها، وبهذا المعنى لدينا إستراتيجية عسكرية وأخرى اقتصادية . . . وهكذا، الإستراتيجية العسكرية تصير بهذا المعنى تحويل وصياغة عسكرية للإستراتيجية القومية، المستوى الثالث، وهو ما يسمى بالإستراتيجية الميدانية، ونقصد بذلك تحويل الإستراتيجية الخاصة بقطاع معين إلى خطة للتعامل وقد تحدد القطاع والمكان والموقف، ومن ثم فإن الإستراتيجية العسكرية يجب بدورها أن تتحول إلى إستراتيجية ميدانية تبعًا للسلاح المستخدم، والمكان، أو موقع المعركة المتوقعة . . هذا الذى حددناه هو تبسيط مطلق، ولكن الفكرة الأساسية واضحة، والتى تعنى أن التعامل العسكرى يفترض تعددًا وتناسقًا .

هناك إستراتيجية قومية يتدخل فيها العنصر العسكرى . . ثم هناك إستراتيجية عسكرية يجب أن تكون من حيث طبيعتها تحويلا للإستراتيجية القومية، إلى إدراك عسكرى، ثم هناك إستراتيجية ميدانية تدور حول نقل تلك الإستراتيجية العسكرية إلى ميدان التنفيذ الفعلى سواء بمعنى استخدام سلاح معين، أو مواجهة العدو فى موقع معين . . الإستراتيجية الميدانية بهذا المعنى تفترض بدورها مستويات ثلاثة : إستراتيجية كل سلاح على حدة، ثم إستراتيجية كل ميدان من ميادين المعركة، تصير بدورها نوعية أخرى، وفى داخل ذلك فإن كل موقف يفرض بدوره مستوى ثالثًا سواء كان الموقف مرتبطًا بميدان المعركة أو بلحظة التعامل أو بظرف التعامل .

الذى يعنينا أن نذكر به أيضًا أن هذا العدد لا يعنى الاستقلال والانفصام، فن إدارة الحرب يقوم على أساس كيفية التفاعل والتداخل بالتأثير والتأثر بين جميع هذه المستويات للإستراتيجية، بحيث لا يحدث تناقض ولا يؤدى التعدد إلى خلق الشعور بالفرقة أو الاستقلالية .

فهم الإستراتيجية الإسرائيلية يفترض الفهم الواضح لما قدمناه، وهو يعنى أننا لنستطيع أن نكتشف تلك الإستراتيجية وجوهرها الحقيقى، يجب أن نسلك منهاجية أساسها التنقل من الجزء إلى الكل، بتدرج معين، وبحساسية وعلمية واضحة . . لذلك فإننا لنستطيع أن نصوغ تصورنا للإستراتيجية العليا والكلية للدولة اليهودية سوف نتبع المنهاجية التالية :

(أ) تحليل إستراتيچية كل سلاح من الأسلحة التى تعرضنا لذكرها سابقًا .

(ب) ومن ثم ومن خلال تجميع تلك الإستراتيچيات الخمس ، نستطيع أن نكتشف خصائص الإستراتيچية العسكرية لتل أبيب .

(جـ) وهذا سوف يسمح لنا بتحديد خصائص الإستراتيچية القومية للدولة الإسـ يلية .

(د) وعلى هذا الضوء نستطيع أن نكتشف أيضًا خصائص إستراتيچيات أخرى فرعية وبصفة خاصة إستراتيچية التعامل الاقتصادى مع المنطقة من جانب ، وإستراتيچية التعامل مع مصر من جانب آخر .

نبدأ بإستراتيچية التعامل النووى . .

مراحل تطور الإدراك العسكرى الإسرائيلى

سبق وذكرنا أكثر من مرة أن السلاح النووى هو أحد العناصر الأساسية فى العقيدة القتالية الإسرائيلية . . ليس هذا موضع تحليل المشاكل العديدة التى يثيرها الخيار النووى ، إلا أن مجموعة من الحقائق يجب أن نقدم بها ونحدد دلالتها والإستراتيچية الإسرائيلية المعاصرة ، نحن لا نزال ـ وكما سبق وحددنا ـ نتعامل مع الإستراتيچية المرتبطة باستخدام هذا السلاح ، وليس الإستراتيچية الكلية القتالية .

■ **أولا** : أولى هذه الحقائق أن الإدراك الإسرائيلى بصدد السلاح النووى تطور تطورًا خطيرًا ، ونستطيع بصفة عامة أن نميز بين مراحل ثلاث :

(أ) المرحلة الأولى : منذ وجود إسرائيل حتى عام ١٩٧٣ ، حيث كان السلاح النووى سلاحًا رادعًا ، القصد منه تخطى عناصر الضعف التى يعانى منها الجسد الإسرائيلى ، وإرهاب العالم العربى ، بحيث يصير هذا السلاح إحدى أدوات الحرب النفسية الإستراتيچية ، ومن ثم يمكن أن توصف بأنها إستراتيچية الردع .

(ب) المرحلة الثانية : وهى منذ حرب أكتوبر حتى حرب لبنان أى عام ١٩٨٢ ، أضحت الإستراتيچية الإسرائيلية أساسها الخوف ، والسلاح النووى هو سلاح محور استخدامه أنه السلاح الأخير ، حيث لا يعنيه سوى القضاء على الخصم ، ولو من خلال

الانتحار الذاتى، إنها عقدة الماسادا . . وهكذا نستطيع أن نسمى هذه الإستراتيچية بأنها إستراتيچية الانتحار .

المرحلة الثالثة : وقد برزت فيها القنبلة التكتيكية، لتصير هذه القنبلة أداة لإستراتيچية هجومية، تسمح بتحقيق الهيمنة الأرضية والاستئصال البشرى للقدرة المعادية .

الكثير ممن تعرض للإستراتيچية الإسرائيلية النووية، لا يزال غير واع بحقيقة التطور الأخير، وهو لا يزال يناقش موضوع السياسة النووية الإسرائيلية على ضوء المعطيات السابقة على امتلاك القنبلة النووية التكتيكية .

■ **ثانيًا** : رغم كل ما سوف نقدمه من تفاصيل ومصادرها موثقة كما سوف يرى القارئ، فإن معلوماتنا المتوافرة والمتداولة بخصوص السلاح النووى الإسرائيلى على وجه الخصوص محدودة الأهمية، وكما سوف نرى فيما بعد . . رغم ذلك فالثابت أن إسرائيل تملك القنبلة النووية ومنذ فترة غير قصيرة، وهى قد توجهت إلى ذلك بصفة خاصة عقب فشل العدوان الثلاثى . . وبمعونة القيادة الفرنسية لتستطيع إسرائيل أن تحمى نفسها . . تقارير أكثر الخبراء حيادًا عقب الكثير من التقارير الدقيقة، بعضها مصدرها وكالة المخابرات الأمريكية نفسها وبصفة خاصة عقب الأنباء التى سربها (فانونو) والتى أخضعت لتحليل دقيق من أعظم علماء الذرة، وبصفة خاصة بفضل الصور التى قدمها الفنى الإسرائيلى المذكور، فإن إسرائيل تملك اليوم ما يزيد على (مائتى رأس نووى) بل والبعض يصل به الأمر إلى القول بأن إسرائيل حاليًا تملك القدرة على إنتاج قنابل نيوترونية، على كل فإسرائيل اليوم هى الدولة السادسة فى العالم كدولة نووية بكل ما يعنيه ذلك من نتائج سياسية، إسرائيل النووية حتى وقت قريب كانت تقوم على أسس خمسة :

أولا : من جانب أول الغموض حول امتلاك إسرائيل للقنبلة النووية، فهى تارة تترك أخبارًا تتسرب عن امتلاكها لتلك القنبلة، وسرعان ما تكذبها المصادر الرسمية، حتى أن اعترافات العامل الفنى السابق ذكره البعض، بل والكثير من المعلقين من يعتبرها من قبيل الإخراج المسرحى، والسبب فى ذلك واضح فالسياسة الإسرائيلية تستخدم هذا السلاح وما يثار حوله وسيلة لخلق البلبلة والاضطراب فى الجانب

العربى، ثم هى تستخدمه أداة للابتزاز، وقد حدث ذلك فى علاقة تل أبيب بواشنطن أثناء حرب أكتوبر للحصول على السلاح الذى يسمح لإسرائيل بمواجهة التفوق المصرى على جبهة القناة.

ثانيًا: وهى كانت وظلت حتى وقت قريب تعتبر السلاح النووى فى صورته التقليدية سلاحًا للردع وليس للممارسة، ولعل ما يؤكد ذلك سلوك السلطات المسئولة فى تل أبيب أثناء حرب أكتوبر كما ذكرنا.. لقد هددت به وباستخدامه وبذلك استطاعت وبسرعة أن تحصل على سلاح متقدم من واشنطن، ولا يوجد ما يمنع أن يكون تسريب هذا النبأ من جانب كيسنجر أثناء حرب أكتوبر، وسيلة يبرر بها السلاح الكثيف الذى عمل هو شخصيًا على وصوله، وبسرعة إلى إسرائيل عقب الهجوم الأول الناجح من الجانب المصرى.

ثالثًا: وهى مصممة على أن تظل هى ـ أى إسرائيل ـ صاحبة الاحتكار الوحيد لهذا السلاح فى منطقة الشرق الأوسط؛ ولذلك فهى فى نفس اللحظة التى تساعد فيها وتقدم معونتها الفنية لبعض دول العالم الثالث، كتايوان فهى مصممة على ألا تسمح لأى دولة عربية بأن تملك تقدمًا فنيًا فى هذا المجال.. تدمير المفاعل النووى العراقى بالقرب من بغداد، يدخل فى هذا النطاق، واحتمالات تدمير أى محاولة لإعادة بناء ذلك المفاعل فى المستقبل يجب أن يؤخذ بكثير من الجدية.

رابعًا: نقل المادة المتفجرة النووية، والتى نستطيع أن نصفها بالسلاح النووى، فى الفكر التقليدى الإسرائيلى يجب أن يتم باستخدام الطائرة، هى وحدها التى تسمح بالوصول إلى الهدف وإصابته بدقة، ومن هنا الترابط الوثيق بين السلاح الجوى والسلاح النووى.

خامسًا: استخدام السلاح النووى من جانب إسرائيل فى صورته التقليدية يفترض توافر ثلاثة شروط.. أن تكون هناك حرب قد هزمت فيها إسرائيل، ثم أن تكون الهزيمة قد وصلت إلى حد لم يعد من الممكن بخصوصه تجنب استئصال الدولة اليهودية، أى استئصال الوجود العبرى كدولة، وكنظام سياسى فى المنطقة، وأخيرًا أن تكون القوى الدولية العظمى ـ وبصفة خاصة موسكو وواشنطن ـ قد أعلنت أو أظهرت إرادة التخلى عن إسرائيل، فى تلك اللحظة فإن إسرائيل لن تتردد فى استخدام

السلاح النووى، ولن يعنيها ما يفرضه ذلك من مخاطر، مردها انتشار الإشعاعات النووية فى الأرض الإسرائيلية نفسها، وهى لذلك تعبر عن مفهوم الانتحار الذاتى كمحور للتعامل القومى، وهو ليس جديداً فى التاريخ اليهودى، وبصفة خاصة فى قصة المجتمع اليهودى وتعامله مع الإمبراطورية الرومانية.

المتغيرات الجديدة والإستراتيجية الإسرائيلية

مجموعة من المتغيرات برزت بصفة خاصة فى الأعوام الخمسة الأخيرة، كان لا بد وأن تفرض إعادة النظر فى هذه الإستراتيجية التقليدية فى الإدراك الإسرائيلى للسلاح النووى.

أولا: وضوح تدهور القدرات القتالية للجندى الإسرائيلى.. ظهر ذلك واضحًا فى حرب لبنان، لقد اختفت الأسطورة التى أحاطت بالجيش الذى لا يقهر، فى حرب أكتوبر، رغم ذلك فقد انطلقت الإشاعات من نفس بعض القيادات العربية، وعرفت الدعاية الإسرائيلية أن تعيد من تنظيف الصورة المترسبة فى الذهن، حول هذا الجندى بفضل قصة الثغرة وحصار الجيش المصرى، ولكن أحداث لبنان جاءت فأعادت الأمور إلى نصابها، ظهر الجندى الإسرائيلى على حقيقته جبانًا لا يخشى قدر ما يهاب القتال أو المواجهة فى ميدان المعركة، حيث تكون هذه المواجهة شخصًا لشخص، وكان لا بد للقيادة العسكرية من ثم أن تعيد حساباتها.

ثانيًا: برزت بوضوح كذلك حقيقة لم تعد موضع مناقشة، السلاح النووى سوف يدخل إن آجلا أو عاجلا إلى منطقة الشرق الأوسط وسوف تستطيع دول عربية عديدة أن تمتلك هذا السلاح، سواء من خلال تطوير قدراتها الذاتية، أو بشرائه من دول أخرى إسلامية، أو غير إسلامية، أو بالحصول عليه من السوق الدولى للسلاح، من الدول التى يرشحها الخبير الأمريكى المعروف «ليفيفر» لإنتاج القنبلة الذرية وخلال فترة لن تتعدى نهاية القرن الحالى، إلى جوار مصر، هناك العراق وليبيا، بل البعض يعتقد أن العراق بفضل المساعدات السخية السعودية والتعاون المصرى، والاتفاقيات بين كل من الأرجنتين والبرازيل، سوف تملك هذه القنبلة خلال خمسة أعوام، بل وسوف تملك كل ما تحتاجه لتدمر به أجزاء عديدة من إسرائيل، فهل سوف تقف تل أبيب

منتظرة أن تصاب بالضربة الأولى؟ وما هو أهم من ذلك، ما هى النتائج المتوقعة لانتشار السلاح؟ هل هو تحييد للسلاح فلا يستخدم من أى من الجانبين أم التصعيد بحيث لا بد وأن يستخدم إن آجلا أو عاجلا من جانب أحد الطرفين؟ ولا يجوز أن ننسى أن طهران بدورها بدأت تعد نفسها لاستخدام هذا السلاح فى حروبها القادمة، والقيادة الإسرائيلية تعلم أن طهران هى فى دائرة الصداقة مع تل أبيب، ولكن الصداقة المؤقتة، والموقوتة، وأنها مرشحة ومنذ الآن أن تندرج فى دائرة العداوة أيضًا للدولة اليهودية.

ثالثًا: أمر آخر، لا بد وأن يقلب جميع الموازين بالنسبة للسلاح النووى، كشفت عنه للتحقيقات الصحفية ويدور حول امتلاك إسرائيل لقنابل ذرية تكتيكية تستخدم للتدمير فى مساحات محدودة.

رابعًا: وفى خلال ذلك فإن العين الدقيقة لاحظت أن الصراع الفكرى الذى كان قائمًا بين الصقور والحمائم حول استخدام السلاح النووى من الجانب الإسرائيلى قد اختفى تدريجيًا، ولم يعد يثيره أحد، هل ذلك مرده ذلك الاكتشاف بالنسبة للقنبلة النووية التكتيكية؟ وجاء من ذلك حادث (فانونو) فكان لا بد وأن يطرح التساؤل: هل هو تسريب مقصود؟ أم أنه نوع من التسيب فى الجهاز المشرف على التعامل مع السلاح النووى؟ وإذا كان تسريبًا مقصودًا فلماذا؟ ما الذى تبغيه إسرائيل من إقناع العالم بأن لديها أكثر من مائتى رأس نووى؟ وإذا كان تعبيرًا عن حالة تسيب فما هى الدلالة التى يمكن أن نستخلصها من مثل هذا الموقف؟

ما المقصود بدقة، من أن إسرائيل تملك القنبلة النووية التكتيكية لحسابها: بحيث إن القيادة العسكرية اليهودية هى التى تتحكم فى كل ما يتصل بها؟

القنبلة النووية التكتيكية الإسرائيلية

يجب منذ البداية أن نميز بين مجموعة من الحقائق:

(أ) القنبلة التكتيكية ليست هى السلاح النووى، فالقنبلة التكتيكية هى سلاح نووى، ولكنه محدود الفاعلية، بمعنى أن آثاره المدمرة محدودة بتبعية مساحية معينة،

وبحيث إن الآثار المدمرة لا تتجاوز تلك البقعة، حدها الأدنى قرابة خمسين كيلو مترًا مربعًا، وحدها الأقصى لا يتجاوز خمسمائة كيلو متر مربع، فلو تصورنا مربعًا آخر أحد أضلاعه خمسة وعشرين كيلو مترًا نستطيع أن نحصر آثار القنبلة الذرية سواء المباشرة أو غير المباشرة بل وفى الأمد القصير نسبيًا.

(ب) كذلك علينا أن نتذكر الفارق بين القنبلة التكتيكية النووية المخزنة فى إسرائيل من جانب الولايات المتحدة، وتلك التى استطاعت أن تتوصل إليها إسرائيل، مستقلة عن اتفاقها مع الولايات المتحدة ولحسابها الخاص.. سبق وذكرنا موضع القنبلة النووية التكتيكية فى الترسانة المخزنة فى إسرائيل، بمقتضى اتفاقية التعاون بين واشنطن وتل أبيب، وهى قنبلة لا نعلم عن خصائصها الكثير ولكن هناك قنبلة أخرى قد تم إنتاجها، وتمت تجربتها لحساب إسرائيل فى اتحاد جنوب إفريقيا، هذه هى التى تعنينا فى هذا المقام.

(جـ) رغم ذلك فيجب أن نعترف بأن معلوماتنا المتوافرة والمتداولة بخصوص السلاح النووى الإسرائيلى على وجه الخصوص لا تساوى قلامة ظفر، إنها قديمة من جانب، وهى لم تخضع لتحليل جدى حيث يتوفر السياسى المتخصص، والعلمى النابه، ثم العسكرى الميدانى من جانب آخر، ولنقدم لذلك نموذجًا، خرجت علينا الصحافة تهلل وتبشر بخصوص ترجمة كتاب (بيتر براى) عن الترسانة النووية الإسرائيلية (انظر الشعب بتاريخ ٢٥/ ٤/ ١٩٨٩) هذا الكتاب طبع بتاريخ ١٩٨٤ وتنتهى معلوماته عند عام ١٩٨٢ فى إسرائيل، وفى جنوب إفريقيا توقف عند ذلك العام؟

بدأ التساؤل عن امتلاك إسرائيل للقنبلة النووية التكتيكية، كان فى أواخر عام ١٩٧٩ (سبتمبر) عندما سجلت أجهزة الرصد حدوث برق ضوئى ساطع فى عرض البحر بالقرب من الطرف الجنوبى لدولة جنوب إفريقيا، وقد رجح فى وقته الخبراء أن سبب هذا البرق الضوئى هو اختبار قنبلة ذرية، ثم كشفت عقب ذلك مصادر المعلومات وصول - عقب هذا الانفجار مباشرة - وفد عالى التخصص من إسرائيل إلى جنوب إفريقيا وظلت المعلومات تتوافر وتتجمع حتى خرجت علينا مجلة «دير شبيجل» الألمانية منذ ثلاثة أعوام بمقال كتبه أستاذ سابق فى جامعة تل أبيب، يكشف عن حقيقة

التعاون بين الدولة اليهودية واتحاد جنوب إفريقيا، الذى كان أحد أبعاده إنتاج هذه القنبلة التكتيكية.

القنبلة النووية التكتيكية التى توصلت إليها إسرائيل بالتعاون مع جنوب إفريقيا تتميز بخصائص معينة بحيث يمكن تحديد مواصفاتها بالتالى:

أولا: قوتها التدميرية لا تتجاوز ٢ كيلو طن وهو الأمر الذى يعنى أن حدودها المكانية من حيث التدمير لن تتجاوز خمسين كيلو مترًا مربعًا، أى مساحة لا تتجاوز من حيث اتساعها سبعة كيلو مترات طولا فى سبعة كيلو مترات عرضًا، فإذا أضفنا إلى تلك المساحة عشرة أمثالها من قبيل الاحتراز المبالغ فيه لفهمنا إلى أى مدى تستطيع إسرائيل أن تستخدم هذه القنبلة فى حربها القادمة، ودون أن تخشى على نفسها، ولفهمنا ولو مؤقتًا لماذا سوف تكون الخطوة الأولى فى الحرب القادمة ضرب الدول الثلاث البعيدة عن حدودها العراق وليبيا واليمن.

ثانيًا: هذه القنبلة يمكن إطلاقها من مدفع هاوبتس من عيار ١٥٥ مليمتر، أو من مدفع محمول على متن سفينة أو من صاروخ جو/ أرض.

هذا التطور قلب رأسًا على عقب جميع الاحتمالات.. ومعه بدأ التفكير الجدى فى إستراتيچية إسرائيلية جديدة.

ما هى هذه الإستراتيچية؟

وما هو موضع السلاح النووى فى هذه الإستراتيچية؟

وما هو موضوع القنبلة التكتيكية فى السياسة النووية الإسرائيلية؟

وكيف يستطيع العالم العربى تحييد هذا السلاح؟

وأين مصر من ذلك؟

الأسئلة تتداعى ولكل سؤال إجابة.

* * *

(٩)

الدول العربية تستخدم الأسلحة التقليدية في تدمير السلاح النووى الإسرائيلى

«السلاح النووى يثير الكثير من المشاكل، سواء بخصوص استخدامه أو بخصوص آثار امتلاكه على التحرك الدولى، والسياسة الخارجية للدولة التى تمتلكه.. هذه المشاكل كانت تقتصر حتى وقت قريب على علاقة الدولتين الأعظم، وحلفاء كل منهما من الدول الكبرى، ولكن طرح هذا الموضوع، فى علاقة الدول الصغيرة بعضها بالبعض الآخر، أو من حيث علاقة تلك الدول الصغيرة والتابعة بالدولتين الأعظم، لم يحدث حتى وقت قريب.. وبصفة خاصة من منطلق مبدأ التوازن الإقليمى.

قبل أن نطرح الموضوع، من متغيراته الأساسية، فإن هناك مجموعة من المفاهيم الخاطئة، والتى لا تزال تسود العقل الإستراتيجى العربى يجب أن نزيلها.. هذه المفاهيم رسبتها فى الإدراك العربى الدعاية الصهيونية، وساعد على ذلك الجهالة العربية، وقد آن الأوان لأن نفهم الحقائق فى صورة واضحة ودقيقة.

أول هذه المفاهيم: القناعة بأن الدول النووية ملتزمة بعدم انتشار السلاح النووى، وهى من ثم تتصور قياداتنا، فإن هذه الدول النووية تقف من السياسة النووية الإسرائيلية موقف التحفظ إن لم يكن الرضا.. هذا المفهوم الخاطئ، لا ينطبق فقط على فرنسا، بل وكذلك على الولايات المتحدة.. لقد سبق ورأينا فى موضع سابق كيف أن واشنطن تخزن القنبلة النووية التكتيكية فى إسرائيل؛ بل وهى فى تل أبيب لتكون أداتها فى استخدام هذه القنبلة لإيقاف التدفق السوفييتى اليسارى، لو حدث نحو البحر الأبيض المتوسط.. البعض من قياداتنا بالسذاجة المعهودة يتصور أن عدم إعلان إسرائيل عن قدرتها النووية، وعن امتلاكها للقنبلة النووية، هو الخشية من

الولايات المتحدة الأمريكية التى لا ترغب ولا تقبل امتلاك إسرائيل لتلك القنبلة، أمر غير وارد، والثابت أن إسرائيل حتى فى تعاملها مع جنوب إفريقيا حصلت على مساعدات سخية من جانب واشنطن. . كذلك فإن فرنسا تساعد إسرائيل بجميع الوسائل لتدعيم قدرتها النووية. . ليس فقط بالمعنى المعروف. . من أنها تلقت مساعدة من فرنسا عقب الاعتداء الثلاثى، لمساندة الصناعة النووية العسكرية، بل وعقب مجىء (ميتران) إلى السلطة، الرئيس الفرنسى وعد تل أبيب بمفاعل ضخم أثناء زيارته لإسرائيل منذ عدة أعوام، تسدد نفقاته بتقديم إنتاج إسرائيل من علب السردين، وهذا يعنى أنه يقدم المفاعل هدية من باريس إلى الدولة العبرية. . لا يجوز أن تخدعنا التصريحات العكسية التى هى أداة التخدير. . والواقع أن خلف ذلك لعبة معينة، فالولايات المتحدة تفرض على فرنسا أى معلومات عن التقدم التكنولوچى بهذا الخصوص، تل أبيب تقوم بدور الوسيط بالنسبة لفرنسا، إذ تسرب إليها المعلومات التى تصلها نتيجة لتعاونها القائم على قدم وساق مع واشنطن. . والخلاصة، أن الولايات المتحدة وكذلك فرنسا دون الحديث عن جنوب إفريقيا تقدمان لإسرائيل جميع التسهيلات بهذا الخصوص.

الأمر الثانى: والذى يساهم فى تخدير القيادات العربية القناعة بأن استخدام السلاح النووى فى النهاية مقيد باعتبارات دولية، وأن القوى العظمى لن تسمح باستخدام ذلك السلاح فى منطقة الشرق الأوسط ليس فقط الاتحاد السوفييتى بل وكذلك الولايات المتحدة، مرد ذلك السذاجة العربية التى تتصور بأن هناك رأيًا عامًا دوليًا يستطيع أن يمارس قوة ضاغطة على الإرادة الإسرائيلية، فكرة خاطئة وقد أثبتت الأحداث أن الرأى العام الدولى لا وجود له وأنه إن تحرك فعندما تصيبه الأحداث وليس عندما يصاب الآخرون. . وقد أثبت ذلك حرب الخليج. . ضرب بغداد بالصواريخ بل وضرب أكثر من مدينة واحدة إيرانية لم يحرك ساكنًا فى مستنقع الرأى العام الدولى.

الأمر الثالث: وهو أن نفقات القنبلة النووية مخيفة، لا تستطيع أن تتحملها ميزانية الدول الصغيرة أو الدول الفقيرة، مما لا شك فيه أن هذه حقيقة ولكنها مسببة، إن هناك من السلاح التقليدى ما هو أكثر تكلفة من السلاح النووى، مما لا شك فيه أن السلاح الكيميائى والجرثومى ـ كما سوف نرى فى موضعه ـ أقل تكلفة، ولكن هذا لا يعنى أن

السلاح النووى هو الأكثر تكلفة، لقد تقدم وتطور إنتاج السلاح النووى، بحيث أضحى فى متناول الجميع . . ويكفى أن نتذكر أن الطائرة ميراج ٢٠٠٠ تكلفتها خمسة أمثال تكلفة عجلة إطلاق صاروخ بلاستيكى متوسط، الذى يصلح لإرسال الرءوس النووية . . كذلك نستطيع أن نضيف أن مدمرة بحرية تقليدية لا يقل ثمنها عن ثمن ثلاث غواصات نووية، هذه المفاهيم الخاطئة يجب أن تزال من الإدراك العربى . .

السلاح النووى وعملية التوازن الإقليمى

يرتبط بذلك مفهوم آخر، بدوره خاطئ؛ ولكن له آثار خطيرة، بالنسبة للتعامل مع هذا السلاح فى منطقة الشرق الأوسط، ونقصد بذلك مفهوم توازن الرعب كأداة حاسمة فى تحقيق تحييد السلاح . . . هذا المفهوم هو الذى يسيطر على التوازن النووى، على مستوى التعامل بين الدولتين الأعظم . . خير وسيلة لمنع أى طرف من استخدام السلاح الذرى، هو امتلاكه وبنفس القوة والفاعلية والمستوى من الجانب الآخر . . فى لحظة معينة، تسرب المفهوم فى الإدراك العسكرى والسياسى العربى، حيث تصور المسئولون أن امتلاك السلاح من الجانب العربى سوف يكون سببًا كافيًا لتحييد السلاح فلا تستخدمه أو تفكر فى استخدامه القيادة الإسرائيلية . . ولعل هذا هو أيضا السبب فى أن أحد عناصر السياسة الإسرائيلية لا تسمح لأى دولة عربية بامتلاك السلاح النووى، لأنها بذلك تضمن إمكانية الممارسة والإرهاب، أو الردع بصورة فاعلة فى مواجهة خصومها . .

هذا المفهوم الخاطئ . . أو بعبارة أدق لا يصلح لتفسير علاقة التوازن الإقليمية، وإن كان يصلح لتفسير علاقة التوازن الكلية الشاملة، لماذا؟

أولا: يجب أن نتذكر أنه فى علاقة التوازن الدولى هناك أطراف غير الدولتين الأعظم يمكن فى إطارها استخدام السلاح الذرى . . فى لحظة معينة عرض (ريجان) استخدام هذا السلاح فى تعامله مع الاتحاد السوفييتى فى الأرض الأوروبية . و رغم أنه كان غير موفق فى هذا العرض، إلا أنه يعكس حالة فكرية قائمة ومتداولة بين المسئولين، سواء فى واشنطن أو فى موسكو، وإذا كانت أوروبا ولها وزنها قد ثارت فلماذا لا يستخدم هذا السلاح فى خارج أوروبا، أى فى أحد أجزاء العالم الثالث،

وبصفة خاصة فى منطقة كالعالم العربى، أو إفريقيا السوداء؛ وهو ما يتفق مع التوجهات الخفية للدول البيضاء؟ هذا الاحتمال لا موضع له بالنسبة للقوى النووية الإقليمية؛ لأنها لا تستطيع ولا تملك مثل هذه القدرة.

ثانيًا: أن السلاح فى العلاقة بين القوتين الأعظم، هو أساسًا سلاح ردعى، ولكنه ليس سلاحًا للممارسة.. والسبب فى ذلك يعود أساسًا إلى أن كلتا القوتين الأعظم تمتلك من السلاح التقليدى ما يسمح لهما بقوة تدميرية مخيفة، ومن ثم فهما ليستا فى حاجة إلى استخدام السلاح النووى، فى القوى الإقليمية فإن هذا السلاح ـ أى النووى ـ ليس سلاحًا فقط ردعيًا بل هو بالأساس لتحقيق السيادة لأحد الأطراف فى مواجهة الأطراف الأخرى؛ ولذلك فهو ليس **سلاحًا ردعيًا بالأساس** بل هو سلاح للممارسة.. وقد رأينا قبل ذلك هذا التحول **فى السلاح النووى** الإسرائيلى منذ اكتشاف القنبلة التكتيكية.. إسرائيل تعد نفسها **لاستخدام هذه** القنبلة؛ لأنها سوف تسمح لها بتحقيق الهيمنة على المنطقة، وهو فى جوهره أداة لخلق الاختلال فى التوازن السلاحى فى المنطقة لصالحها.

ثالثًا: ويبرز هذا فى صورة واضحة، بالنسبة لما يسمى بالضربة الثانية.. ففى الإدراك السائد بالنسبة للسلاح النووى، واستخدامه من جانب الدولتين الأعظم، أن العبرةالحقيقية فى حالة استخدام السلاح هو من يوجه الضربة الثانية.. ومعنى ذلك أن الضربة الأولى لن تحسم المعركة، حيث الطرف الثانى فى حالة استعداد دائمة، وما أن تصيبه الأولى حتى يأتى رد فعله فى ضربة ثانية، هى وحدها الحاسمة بحيث إما تلقى الخصم أرضًا، فتحقق له الفوز، أو تأتى محدودة الفاعلية فتكون النهاية، ولكن فى نطاق التعامل الإقليمى، وفى ضوء ما سبق وقدمناه لن تكون هناك ضربة ثانية.. الطرف الثانى لا يملك أى إمكانيات، أو إمكانياته محدودة، بحيث إن الضربة الثانية لو حدثت فلن تأتى من الطرف الذى خضع للضربة الأولى، وإنما سوف يكون مصدرها نفس الذى صدرت منه الضربة الأولى.

القدرة النووية الإسرائيلية

قبل أن نواصل هذا التحليل، يجب أن نحدد بصورة دقيقة القدرة النووية الإسرائيلية وخصائصها.. سبق وذكرنا فى أكثر من مناسبة أننا لا نملك معلومات

موثوقًا بها، وليست لدينا أجهزة للمعلومات، وبصفة خاصة مراكز إستراتيچية تستطيع أن تقول كلمتها بذلك الخصوص، هذا التقدير من جانبنا هو نتيجة جهود فردية أجراها بمشاركتنا البعض من طلبتنا فى بغداد، وحيث أخضعنا هذا الموضوع لدراسة حادة خلال قرابة ثلاثة أعوام، شاركنا فيها بعض العلماء الفرنسيين، وبصفة خاصة مركز الدراسات الإستراتيچية القومية بباريس. . ومن ثم يجب أن يكون واضحًا أن التقدير مهما بلغ من دقة، فإنه تعوزه المساهمة الجادة المسئولة. . كذلك فإن الثقة فى ذلك الذى يقدمه العلماء الفرنسيون محدودة، فنحن نعلم بأن التعاون بين السلطات الفرنسية وتلك الإسرائيلية حتى هذه اللحظة على قدم وساق.

المتغيرات التى تتحكم فى نوعية وخصائص السلاح النووى الإسرائيلى أربعة:

أولا: سيطرة القنابل النووية الصغيرة. . لقد سبق وذكرنا الاكتشاف المتعلق بالقنابل النووية التكتيكية إسرائيل منذ ذلك التاريخ لا بد أن تتجه فقط لإنتاج هذا النوع من القنابل. . لماذا؟

١ ـ توزع الأهداف فى منطقة الشرق الأوسط التى سوف تكون مسرحًا للعمليات، ومن ثم فامتلاكها لعدد كبير من القنابل الصغيرة يمكن إسرائيل من أن تصيب العديد من الأهداف الموزعة على رقعة جغرافية متسعة.

٢ ـ استخدام قنابل صغيرة ـ فى حالة إسرائيل ـ يمكنها من تحقيق فاعلية أكبر لإلحاق الأذى بأكبر قسط من الأهداف.

٣ ـ كذلك فإن قذف القنابل الصغيرة أكثر سهولة من القنابل العملاقة؛ بل وهو بفضل الأدوات التى تملكها إسرائيل يصير أكثر دقة.

٤ ـ هذا إلى جوار أنه أقل تكلفة.

٥ ـ وذلك دون الحديث عن أن القنابل الصغيرة ليست فى حاجة إلى إجراء تجارب للتفجير، وهو أمر يجعل إسرائيل تملك استقلالا معينًا فى إنتاج تلك القنابل.

٦ ـ وأخيرًا ولعل هذا أهم متغير وهو أن هذه القنابل، ورغم قوتها التدميرية الرهيبة فإنها محدودة من حيث الإشعاع الذرى، ومن ثم فإن إسرائيل تصير مطمئنة ولو نسبيًا على عكس الحال بالنسبة للقنابل العملاقة.

ثانيًا : الواقع أن مصدر ذلك الخيال الإستراتيجى، أن حاجة إسرائيل للسلاح النووى ليس كحاجة الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتى، أو غيرهما من الدول النووية الكبرى، إنها - أى إسرائيل - وهى فى قلب الوطن العربى، وذات مساحة صغيرة لا يمكن أن تستخدم ضد جيرانها قنبلة نووية كبيرة؛ لأن هذا يشكل خطرًا على أرضها، بل وحتى ولو استخدمت القنبلة النووية الكبيرة فى أرض بعيدة عنها، فإن ضخامة الإشعاع يشكل خطرًا على احتمالات التوسع والغزو الاقتصادى. . الذى هو محور سياستها. . رغم ذلك فإسرائيل تمتلك أيضًا قنابل متوسطة، وهى التى كانت تنتجها قبل توصلها إلى إنتاج القنبلة التكتيكية.

وبصفة عامة نعتقد أن إسرائيل حاليًا تملك :

١ - حوالى ثلاثين قنبلة من زنة ٨ ك. ج، وقد يكون عددها لا يتجاوز عشرة قنابل، وهى التى أنتجت قبل - وكما سبق وذكرنا - التوجه إلى القنابل الصغيرة.

٢ - عددًا من القنابل أو الرؤوس النووية التى يتراوح عددها ما بين مائة قنبلة ومائتين من النوع الصغير جدًا، والذى لا يتجاوز وزنه ٢,٥ كجم. مرد هذا التقدير حجم اليورانيوم الذى حققته إسرائيل من جانب، وتحليلات الحوار والتصريحات التى صدرت من العالم الفنى لإسرائيل (فانونو).

٣ - وهى قادرة على أن تضيف إلى هذا العدد، وبإمكانياتها الحالية السنوية حوالى ثلاث قنابل وابتداء من عام ١٩٨٦ وهو العام الذى عرف فيه أن إسرائيل تملك حوالى مائتى رأس نووية.

٤ - وذلك دون الحديث عن القنابل النووية المخزنة لصالح الولايات المتحدة فى إسرائيل.

ثالثًا : الأسلحة النووية الإسرائيلية مفككة، وهى بحاجة إلى تركيب، ويستنتج ذلك من رواية التايم بخصوص استخدام السلاح النووى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، ولا يوجد ما يحمل على الاعتقاد بأن السلطات المسئولة قد غيرت من سياستها بذلك الخصوص، عملية التركيب هذه فى حاجة فقط إلى ٧٢ ساعة. . بطبيعة الحال هذا لا يمنع من أنه خلال الفترة الماضية منذ عام ١٩٧٣ وبصفة خاصة، عقب ضرب المفاعل

النووى فى بغداد، أن تكون لدى إسرائيل بعض القنابل الجاهزة للاستعمال الفورى وبصفة خاصة من القنابل الصغيرة الحجم.

رابعًا: هذه القنابل مخزنة فى أقباء تحت الأرض فى موقع قريب من مفاعل ديمونا، أو تحت المفاعل نفسه.. والواقع أن هذا خير موقع لتخزينها، سواء لأن صحراء النقب أفضل مكان فى إسرائيل بعيد عن أعداء إسرائيل، سواء لأن هذه الصحراء مكان غير مسكون ومن ثم تصير مكانًا ملائمًا لخزن الأسلحة النووية، بحيث إن الخسائر لو حدث انفجار تكون محدودة، سواء لأن التدابير الأمنية فى ذلك المكان أكثر سهولة وأكثر فاعلية، سواء أخيرًا لأن التخزين بالقرب من المفاعل يقلل من النفقات بالنسبة للنقل.

ليس هذا موضع الإستراتيجية الإسرائيلية الجديدة فى كلياتها.. ولكننا لا نستطيع أن نترك الحديث عن السلاح النووى دون التعرض للإستراتيجية المتعلقة بالسلاح النووى، على أن نتعرض للديناميات العامة للتعامل القتالى إلى موضعه، عقب أن نحلل الأسلحة الخمسة التى سوف تستند إليها إسرائيل فى حربها القادمة.

* * *

(١٠)

السلاح النووى الإسرائيلى وإستراتيچية المواجهة العربية

«ليس هذا موضع تقديم نظرية متكاملة لمبادئ التخطيط الإستراتيچى أو قواعد التعامل فى النظرية القتالية، تعرضنا لبعض النواحى حيث فرضت الضرورة ذلك. . كذلك ونحن نطرح موضوع الإستراتيچية النووية الإسرائيلية، فإن بعض عناصر النظرية الإستراتيچية يتعين علينا أن نتصدى لها بالتبسيط المطلق وفى حدود ما نعرض له من مشاكل، سبق أن رأينا أن إستراتيچية القتال بالسلاح النووى تخضع لمبادئ مختلفة، تبعًا للطرف المتعامل، ولهدفه من استخدام السلاح النووى، فيما يتعلق بالطرف المتعامل، نستطيع أن نميز بين إستراتيجچيات ثلاث: القوتين الأعظم، الدول الكبرى، ثم الدول الصغيرة، فى هذا الصدد يبرز بشكل واضح معنى تقسيم الدول إلى طبقات متميزة، فموسكو لا تخضع لنفس المبادئ الإستراتيچية التى تخضع لها دولة كفرنسا، كذلك فإن إسرائيل، أو دولة كمصر، تصير نموذجًا آخر، إسرائيل تلجأ إلى القنبلة النووية التكتيكية لإعادة تشكيل التوازن الإقليمى لصالحها.

سوف نرى معنى ذلك فيما بعد بصورة أكثر تفصيلا، ولكن المهم الذى يجب أن نتذكره أنها تتعامل بهذا المعنى مع دول تملك السلاح الذرى، ولا التوازن النووى مع إسرائيل، وسوف نطرح فيما بعد قناعتنا بأن العالم العربى مهما بذل من جهد، ووضع من إرادة، لن يستطيع أن يصل إلى التوازن النووى مع إسرائيل، ولو من بعيد، ومن ثم يجب أن ينازل إسرائيل بهذا الخصوص مستندًا إلى سلاح آخر، وهو ما سوف نحدده بوضوح فى موضعه: أى السلاح الصاروخى، على أنه لذلك

يجب وضع إستراتيجية متميزة، ما هى تلك الإستراتيجية؟ سؤال الإجابة عليه سابقة لأوانها، الذى يعنينا مؤقتًا تحليل الإستراتيجية القتالية الإسرائيلية بصدد القنبلة النووية التكتيكية.

هناك قاعدتان يجب أن تكون كلاهما واضحة فى الذهن:

القاعدة الأولى: التناسق فى مستويات التعامل الإستراتيجى.

القاعدة الثانية: الاستخدام الأمثل للقدرة الذاتية.

هذه القواعد لا تنبع فقط من الإستراتيجية القتالية النووية، فهى خصائص عامة تشمل أى تعامل إستراتيجى، ولكنها بصدد هذه القنبلة النووية التكتيكية ترتفع إلى القمة، وهنا نلحظ جانبًا أن أحد مصادر قوة إسرائيل، لو قورنت بخصومها، هى دقة التعامل الإستراتيجى، إسرائيل ما ملكت إستراتيجية واضحة لم تتغير فى عناصرها منذ وجودها حتى اليوم، فى مواجهتها يوجد عالم عربى لا يملك القدرات الإستراتيجية بأى معنى من معانيه، من يتابع أولئك الذين كتبوا صفحات ومؤلفات عن حرب يونيه، ثم عن حرب أكتوبر، يلحظ مدى السذاجة التى تميزت بها القيادات المصرية حتى العراق، عندما أتيحت له فرصة النصر، لم يعرف كيف يستغل النصر، ليضع حدًا لاحتمالات حرب أخرى قادمة؛ لأنه لم يملك العقلية الإستراتيجية التى تعرف كيف التعامل مع الموقف.

فلنقتصر مؤقتًا على الإستراتيجية القتالية النووية الإسرائيلية:

التناسق فى مستويات التعامل الإستراتيجى

قاعدة التناسق الإستراتيجى تنقلنا إلى صميم العمل العسكرى، سبق أن تعرضنا لذلك بخصوص مراتب التحرك الإستراتيجى، لا نريد أن نعيد ما سبق أن ذكرناه ولا نريد أن نخرج عن موضوعنا فى أضيق نطاق وبصفة خاصة فى علاقات الإستراتيجيات الثلاث المتتابعة، لا بد من بعض الإيضاح أى إستراتيجية تملك العديد من المستويات ولكن أبرز تلك المستويات من حيث الترتيب التنازلى ـ

من أعلى إلى أسفل ـ توجد ثلاث إستراتيچيات عليا أو الإستراتيجچة القومية، ثم تعقبها الإستراتيچية العسكرية، وتتلوها مباشرة الاستراتيجية القتالية، الإستراتيچية العليا، حيث تتبلور أهداف السياسة القومية التى يجب أن تسيطر على توجه المجتمع فى تعامله الداخلى والخارجى، ولو فى فترة معينة، وحيث تتحدد تلك الأهداف بوضوح وترتيب تصاعدى دقيق، ثم تعقب هذه الإستراتيچية العليا تلك العسكرية، التى هى فى جوهرها صياغة عسكرية للإستراتيچية العليا، أى هى بعبارة أخرى كيف تستطيع الأداة العسكرية أى أداة العنف المنظم أن تحقق تلك الأهداف من خلال القتال، سبق أن ذكرنا فى موضع آخر أن الفكر العسكرى الإسرائيلى المعاصر يميز بصورة مطلقة بين سؤالين: متى يجب أن نقاتل؟ ثم كيف يجب أن نقاتل؟ السؤال الأول الإجابة عليه يتعاون فيه الفكر العسكرى والفكر المدنى، وهذا هو محور الإستراتيچية العسكرية، الإستراتيچية القتالية تأتى فى مرتبة ثالثة لتجيب على السؤال الآخر: كيف يجب أن نقاتل؟ السلاح الأمثل، الموقع الأصلح، الأسلوب الأكثر فاعلية بل ويدخل أيضا فى هذا النطاق عملية اختيار القائد الأكثر استعداداً للتعامل مع مجموعة هذه التساؤلات.. الإستراتيچية على هذا المستوى الثالث لا يتدخل فى صياغتها سوى صاحب المهنة العسكرية.

وهكذا نجد أنفسنا أمام ثلاث إستراتيچيات متتالية، إستراتيچية عليا، إستراتيچية عسكرية ثم إستراتيچية قتالية ما يجب أن نتذكره أن هذه الإستراتيچيات الثلاث يجب أن تملك تناسقًا كاملا، وأن علاقة التناسق يجب أن تكون مطلقة لا تحتمل أى نوع من أنواع التناقض والتعارض، بحيث إن كل إستراتيچية إنما تنشط فى إطار ما حددته السابقة عليها من مبادئ وقد طوعت تلك المبادئ لطبيعة المستوى اللاحق من مستويات التعامل الإستراتيچى، بطبيعة الحال هناك إستراتيچيات أخرى لاحقة ولكن علينا أن نتوقف قليلا أمام هذه المستويات الثلاثة، ونحن نحاول تحديد موقع القنبلة النووية التكتيكية من الصراع فى منطقة الشرق الأوسط.

فلنحدد بوضوح عناصر الإدراك القتالى الإسرائيلى

أولا: السلاح الكيميائى أو الجرثومى هو رأس الحربة، أو المحور الأساسى فى التعامل مع منطقة الشرق الأوسط.

ثانيًا: السلاح النووى هو أداة إسرائيل فى عزل المنطقة، وكما سبق أن ذكرنا بإيجاز وهو ما سوف نعود إليه تفصيلا، فإن القنبلة النووية التكتيكية سوف تصير أداة إسرائيل فى عزل المنطقة، سياسة إسرائيل الإقليمية تقوم على فكرة العزل والتطويق، فكذلك سياستها العسكرية تنبع من المبدأ نفسه، وسوف تستخدم السلاح النووى أداتها فى ذلك.

ثالثًا: وهى لذلك لا بد وأن تبطل مفعول السلاح الصاروخى، الذى يظل الأداة الحقيقية التى تخلق نوعًا من الاختلال لصالح الدول العربية.

على أن تحليل هذه الناحية سابق لأوانه.

الاستخدام الأمثل للقدرات العسكرية الذاتية.

الجوهر الحقيقى لأى تعامل إستراتيجى ينطلق من مبدأ الاستغلال الأمثل للقدرات الذاتية، وهذا يعنى أربعة عناصر للحركة كل منها يكمل الآخر:

الأول: الاستناد فى الحركة إلى أقصى عناصر القوة الذاتية، والتضخم فى ممارستها، العسكرية الإسرائيلية، تملك عنصرين هامين للقوة: الأول القنبلة النووية التكتيكية التى تمكنها من التفوق الكامل على خصمها العربى، والتعاون الإستراتيجى مع الولايات المتحدة التى تسمح لها بخط متأخر للدفاع موثوق من فاعليته سواء الإقليمية أو الدولية.

الثانى: شل عناصر الضعف الذاتية، أو القيام بعملية تمويه بخصوصها، إسرائيل ضعيفة إستراتيجيًا بل إنها تملك من عناصر الضعف ما هو قاتل، أرض فلسطين التى تعيش عليها إسرائيل، لم تكن فى أى مرحلة من مراحل التاريخ مصدرًا لقلاقل، إنها مجرد معبر تجتازه الكلاب القادمة من الشرق نحو أرض الحضارة فى وادى النيل، أو يخترقه عمالقة الفراعنة وأحفادهم، وهم يتجهون إلى المشرق العربى،

يبثون فى ربوعه الحضارة والمدنية، وهى كذلك معزولة تحيط بها بحار المياه المتسعة من الغرب والجنوب، وبحار الرمال من الشرق، هذه البحار تجعلها مخنوقة، إلا فى الشمال، حيث حائط العداوة يكمل هذا الحصار، استطاعت العسكرية الإسرائيلية أن تتخطى ذلك السور من جانب، بتحالفها مع الولايات المتحدة الذى جعل الأسطول السادس فى طوع يدها، وبتعاونها مع حلف الأطلنطى، الذى جعل منها من حيث الواقع حليفًا لدول أوروبا الغربية، وأكملت ذلك بالتغلغل فى الحبشة، الذى جعل منها قوة مسيطرة على مدخل البحر الأحمر.

ثالثًا: الشل لعناصر الضغط الذاتى، يكمله خلق عدم الفاعلية فى قدرات الخصم، العالم العربى يملك عنصرين أساسيين يكونان قوة حقيقية فى مواقعه الإستراتيچية اتساع رقعته من جانب والتضامن بين دول المنطقة، وبصفة خاصة المحيطة بإسرائيل، القادرة على أن تحصرها فى أى قتال لتفرض عليها القتال على الأقل فى ثلاث جبهات فى وقت واحد.

رأينا فى حرب ١٩٦٧ كيف استطاعت إسرائيل أن تضرب ثلاثة جيوش من خلال إستراتيچية أساسها منع الالتحام الحقيقى فى الجبهات الثلاث فى آن واحد، بدأت بضرب مصر، وعقب أن فرضت عليها الركوع اتجهت للأردن، ثم انتهت المعركة بسوريا، قوة الجانب العربى الحقيقية فى هذه اللحظة هى السلاح الصاروخى، والجانب العربى قادر لو توافرت له القيادة الحقيقية، ذات القناعة القومية وإرادة القتال بفضل السلاح الصاروخى، أن يجرد إسرائيل من الصمود إزاء ذلك الاحتمال؟

الرابع: وأخيراً استغلال عناصر الضعف فى الخصم، بحيث تصير مقتلا يقوده إلى الاستسلام والخنوع، أحد عناصر الضعف فى القدرة القتالية الإسرائيلية هو الاعتماد على الاحتياطى، فهل العسكرية العربية قادرة على أن تستغل ذلك ليصير منطلقًا لاختراق قاتل؟

الذى يعنينا أن نذكره أنه فى ظل الموقف الحالى، فإذا كانت إسرائيل تملك القنبلة الذرية التكتيكية، ولا يستطيع العالم العربى أن يجارى تل أبيب فى مسابقة لامتلاك

السلاح الذرى، وهذا هو مصدر قوتها، فإن هذا العالم يمتلك السلاح الصاروخى، وهو قادر لو أحسن استخدامه أن يفرض على إسرائيل - على الأقل - العودة إلى حجمها الطبيعى: دولة صغيرة ودخيلة محدودة، من حيث المساحة، ضعيفة من حيث القدرة الديموجرافية، فقيرة من حيث الإمكانيات الاقتصادية.

كيف يمكن ذلك؟

فلنبدأ بإسرائيل وسلاحها النووى المصدر الحقيقى لقوتها العسكرية.

الإستراتيجية الإسرائيلية الجديدة والسلاح النووى.

نحدد أهداف السلاح النووى الإسرائيلى فى ثلاثة:

أولا: إصابة المواقع الحساسة فى الجسد العربى، والتى تسمح بعزل منطقة الشرق الأوسط عن محيطها الخارجى.

ثانيًا: وذلك بشرط ألا تتجه إلى المواقع التى يعنى إسرائيل أن تمد إليها فى القريب العاجل مخالبها لاستثمارها اقتصاديًا لصالحها.

وبعبارة أخرى فإن السلاح النووى سوف يكون أداة لتحقيق حصار من جانب، ولخلق اضطراب وفوضى مخيفة من جانب آخر، ودون أن يصل ذلك إلى حد نشر إشعاع ذرى فى مناطق يعنى إسرائيل فى الأمد القريب أن تتوغل فيها، سوف نرى فيما بعد كيف أنها سوف تستخدم السلاح الكيميائى والجرثومى فى أغلب الدول المحيطة بها، ولكنها سوف تستخدم القنبلة النووية فى المناطق غير المجاورة لها.

ولذلك فنحن نعتقد أن هناك أربعة مواقع معدة لأن تضرب بالقنابل النووية التكتيكية:

(أ) السد العالى فى جنوب مصر.

(ب) المنطقة الممتدة حول طرابلس فى ليبيا.

(جـ) منطقة الموصل فى شمال العراق.

(د) مضيق هرمز حول سلطنة عمان.

لماذا؟

ضرب السد العالى يعنى تفجير الخزان، الأمر الذى يقود إلى إغراق مصر من أسوان حتى أسيوط خلال ست ساعات، هذه المنطقة تحيط بها مرتفعات من الشرق والغرب وكتلة المياه المتوافرة فى بحيرة ناصر، والتى تمثل عدة ملايين من الأطنان، سوف تنطلق لتقضى على كل مظهر من مظاهر الحياة، حتى مديرية أسيوط، يقدر الخبراء أن ذلك لن يستغرق أكثر من عدة ساعات.

ضرب طرابلس فى ليبيا يحقق أهداف عديدة، تشترك فيها تل أبيب مع واشنطن.

منطقة الموصل فى شمال العراق، وهى المنطقة الصناعية الحقيقية فى العراق تصير الهدف الثالث، وخصوصًا أن ذلك لو حدث فى لحظة معينة فإنه كفيل بإغراق بغداد نفسها..

مضيق هرمز يصير الهدف الرابع؛ لأنه يسمح بخلق منطقة معينة للإشعاع تؤدى إلى عزل الخليج عن العالم الخارجى، من خلال الممرات البحرية، وهو ما يكمل أهداف إسرائيل.

الهدف الأساسى هو عزل منطقة الشرق الأوسط عن العالم الخارجى، وهكذا تستطيع إسرائيل أن تصول وتجول.. القنبلة النووية التكتيكية تحقق هذا الهدف، ترهب المنطقة وتقضى نهائيًا على إرادتها ثم تعزلها عن العالم الخارجى، بحيث تستطيع إرادة تل أبيب تصول وتجول على الأقل قرابة قرن كامل قبل أن تزول نهائيًا الآثار الإشعاعية فى مواقع ضرب القنابل الذرية.

الصراع الفكرى الإسرائيلى حول استخدام السلاح النووى

من الأمور التى لا يجوز أن نتركها تمر عابرة، بخصوص السلاح النووى، الصراع الفكرى بين التوجهات العسكرية الإسرائيلية، والذى ظل سائدًا حتى ضرب المفاعل النووى فى بغداد.. فقد انقسم حتى ذلك التاريخ الفقه العسكرى الإسرائيلى إلى فريقين الصقور من جانب، الحمائم من جانب آخر.

فريق الصقور كان يطالب بالتوسع فى النشاط النووى واستخدام السلاح النووى، هذا الفريق الذى ساد فى الأوساط الحاكمة عندما قرر مناحم بيجين ضرب المفاعل العراقى يستند إلى الحجج التالية:

أولا: لأن التطور النووى فى الوقت الحاضر قد دخل فى بعض الدول العربية، ولم تعد إسرائيل هى المتحكمة فى انتشار واستخدام القنبلة الذرية فى المنطقة.

ثانيًا: كذلك فإن أغلب القيادات المسئولة فى العالم تعتقد عن قناعة أن إسرائيل تملك حاليا تلك القنبلة النووية، وهذه القناعة لم تعد فى حاجة إلى أى حجة جديدة، لتؤكد احتمال صحة الافتراض.

ثالثًا: كذلك فإن قدرة إسرائيل النووية سوف تقود إلى دبلوماسية أكثر توفيقية.

رابعًا: أضف إلى ذلك أن التهديد النووى سوف يخفف من عبء الإنفاق العسكرى بصدد الاحتفاظ بقدرة لمواجهة الولايات المتحدة.

هذه الحجج طرحها أطراف التشدد الذين ظلوا حتى عام ١٩٧٥ يمثلون الفريق السائد فى المؤسسة العسكرية.. ولكن فى أعقاب اتفاقية فك الاشتباك الثانى، بدأت تظهر نغمة جديدة تمثل العكس لهذا التوجه، وفى حدود معينة أنصار هذا التوجه الجديد، والذين يوصفون بالحمائم النووية يناقشون حجج الفريق الآخر واحدة وراء الأخرى، ليصلوا إلى موقف يختلف عن موقف الصقور فى عناصره الأساسية:

(أ) فمهما كانت الحجج المتعلقة بانتشار السلاح النووى فى المنطقة، فما دامت إسرائيل لم تستخدم هذا السلاح فهى تظل غير مسئولة عن التطور الذى لا بد أن يقود إليه مثل هذا الواقع.

(ب) كذلك فطالما أن هناك شكا حول قدرة إسرائيل النووية، فإن الضغط من الجانب العربى بهذا الخصوص يمكن مقاومته.

(جـ) أن الإستراتيجية النووية التى تعنى فى طبيعتها التدمير الشامل، ليس هو الإجابة المعقولة والمقبولة فى الإطار الحالى للتعامل، ولنتصور على سبيل المثال هجوم إرهابى على إحدى الكيبوتزات.

(د) السلاح النووى يفترض تهديداً متجانساً ومركزاً، وهو أمر غير متوقع فى منطقة الشرق الأوسط، العديد من الأطراف تهدد إسرائيل، لكن دون أن يرتبط ذلك التهديد بحساب محدد لأى تعبير عن العنف ونتائجه.

(هـ) وأخيراً فإن الخيار النووى سوف يقلص من قدرة إسرائيل على الحركة، وبصفة خاصة أمام الولايات المتحدة، فإسرائيل وهى لا تملك القدرة النووية تستطيع أن تبرر أى حركة عسكرية إجهاضية ضد أى تجمع للعدو، وهى - أى إسرائيل - تضمن أيضًا فى تلك اللحظة استمرار المساندة بالسلاح التقليدى من جانب واشنطن.

الجانب العربى واستراتيجية المواجهة

قبل أن نترك جانبًا السلاح النووى فى الترسانة الإسرائيلية، ورغم أننا سوف نعود فى موضع لاحق للتعامل مع مختلف الأسلحة الإسرائيلية فى ديناميكية كاملة، فنود أن نلفت النظر إلى حقيقة سوف نطرح تفصيلها فيما بعد.. المواجهة العربية ضرورية، وهى لا تفترض سوى إرادة واضحة صريحة، حيث يجب أن تكون مصر رأس الحربة فى تلك المواجهة.. وفى مواجهة السلاح الذرى الإسرائيلى، ليس أمامنا سوى أمر واحد: هجوم عربى مباغت بالسلاح التقليدى يكون هدفه الأساسى تدمير السلاح النووى الإسرائيلى.

* * *

خاتمة :

نحو بناء الأمة المقاتلة

طالبنا فى أعقاب هزيمة يونيه ١٩٦٧ لإمكانية المواجهة الحقيقية مع «إسرائيل» بتحقيق أمور ثلاثة :

أولا : تعبئة المجتمع بجميع عناصره وقدراته لعملية المواجهة .

ثانيا : تكوين الجيش المهنى ، بما يعنيه ذلك من تخصص فى عملية إدارة القوى المقاتلة ، وعدم تشتيت قدرات القيادة العسكرية إلا فيما يتصل بخلق أداة تكتيل الصراع العضوى فى مواجهة العدو . الجيش المهنى ليس له سوى وظيفة العدو . الجيش المهنى ليس له سوى وظيفة واحدة : أن يدير القتال لأنه يجعل من هذا القتال مهنته الدائمة الوحيدة .

ثالثا : خلق التناسق بين الأدوات القومية للقتال ، وله ثلاث أدوات على الأقل : جيش مهنى ، ودبلوماسية مكافحة ، وإعلام مهاجم هذه الأدوات يجب أن تتفاعل فى إطار واحد من التماسك حيث تصير كل منها رأس حربة لقوة دافقة تقاتل فى ميدانها وتساند الأخرى أيضا فى ميدان هذه الأخيرة .

العنصر الأول نعبر عنه بمفهوم الأمة المقاتلة .

ما معنى الأمة المقاتلة؟

معنى ذلك أن هناك نوعا معينا من الصراعات يفترض فيه أن كل عنصر من عناصر الوطن يتحول إلى مقاتل شرس لا تعنيه نتائج صراعه بقدر ما يعنيه أن يحمل السلاح والسلاح ليس فقط بندقية ولكن محوره هو القدرة على التضحية بالنفس دون أية قيود . وهذا هو مفهوم أمتنا للقتال ، عندما كان يرتفع صوت المنادى داعيا للجهاد يخرج الجميع فليس هناك جندى مقاتل ومقاتل غير جندى : الجميع جند والجميع مقاتلون ، بل كان المقاتل يسير وخلفه أسرته تنتظره فى الصفوف الخلفية للمعركة .

إن مفهوم الجهاد يعنى بالأساس ثلاث حقائق متكاملة : القتال شرف هو وحده الذى يسمح باحترام الذات والعبرة فى ذلك ليس بالنصر فى ذاته ولكن بعدم تقبل الضيم والاستكانة وهو فى تقاليدنا طريق المؤمن إلى الجنة . حضارتنا هى حضارة الإنسان الكامل والإنسان الكامل فى تراثنا هو ذلك الذى يعرف أن الحياة اختيار واختبار هى اختيار مداره الرجولة فى السلوك والرجولة ليست كلمة أو ممارسات عضوية ، إنها قيم التضحية والشجاعة وتحمل المسئولية . وهى اختبار بالإرادة الحرة الصلبة الثابتة بين الخير والشر .

نحن فى حاجة إلى الأمة المقاتلة حيث يصير كل رجل بطلا ، وكل امرأة تتحول إلى رجل ، وحيث كل منزل يصير قلعة ، وكل جزء من أجزاء الوطن يصير فخّا لاستئصال أعدائنا وأعداء قيمنا التاريخية .

كتبنا هذا منذ قرابة عشرين عاما ونحن اليوم أشد ثقة وإيمانا بصدق هذه الكلمات .

لماذا؟

أولا : لم يعد أعداؤنا فقط «إسرائيل» ومن يستتر خلفها من أذناب ، ومن يشجعها من خصوم تقليديين . بل يجب أن نضيف إلى ذلك أولئك الأعداء الذين كانوا فى حالة نوم واستيقظوا ، التطبيقات عديدة البعض منها لا تزال ساكنة ولكنها متربصة .

ثانيا : وهناك أعداء لنا يعيشون بيننا ويتربصون بنا من داخل منزلنا لقد أفرزتهم الأحداث وعلينا أن نفهم جيدا أن هؤلاء يجب اقتطاعهم بلا رحمة . إنهم أخطر من أولئك الذين أعلنوا العداوة صريحة سافرة . إنهم يصفون أنفسهم بالعروبة كذبا بل إن تعاملنا مع هؤلاء يجب أن يكون أكثر قسوة . إن المسلم المرتد يستحل دمه ، بينما الكافر غير المسلم تفرض عليه فقط الجزية ، من آمن بقيمنا شكلا وخان قضيتنا قد خدعنا والخديعة تعنى الحق فى الاستئصال .

ثالثا : كذلك فإن أعداءنا يتعاملون معنا من منطلق هذا المبدأ : مبدأ الأمة المقاتلة والحديد لا يفله إلا الحديد علينا أن نكتل جميع قوانا فى هذه المواجهة التى سوف تحكم على أمتنا لعدة أجيال . أليس هذا هو ما يحدث فى «إسرائيل» ؟ وهل «إسرائيل» تعرف سوى أنها ساعة أن يدق نفير القتال تصير جميع أجزاء المجتمع فى حالة استنفار وقد حملت السلاح وتوجه كل فرد وكل مواطن بل وكل طفل إلى موقعه الذى حدد مسبقا لأداء واجبه؟

رابعا : كذلك فهناك معارك تفرض مفهوم الأمة المقاتلة إليها تلك التى يسير إليها الوجود ذاته موضع مناقشة أن تكون أو لا تكون هذه المعارك لا تعرف التوفيق ولا تقبل المهادنة وقد أثبتت الأحداث أننا منذ أكثر من نصف قرن نعيش معارك من هذا النوع فرضها علينا أعداؤنا

وإن لم نضع حدا لهذه المعارك بتأديب هؤلاء الأعداء فلا مستقبل لنا ولا لأبنائنا، وعلينا أن نفهم ذلك جيدا.

من آن لآخر يرتفع صوت ساذج بأننا لا قبل لنا بهؤلاء الأعداء وهو تعبير عن نقص فكرى هل الأمة العربية أقل من فيتنام لقد علمت هذه الإمبراطورية الأمريكية أن إرادة الشعوب هى وحدها محور التطور الإنسانى ولنتذكر أن معادلة النجاح فى القتال تتكون من أربعة مقاطع: إرادة، وجيش، وسلاح، وقيادة، ولو تفحصنا هذه المعادلة جيدا لوجدنا أن الأمة المقاتلة تحتضن ثلاثة أرباع المعادلة فهى الإرادة المقاتلة وهى الجيش الذى يصير فيه حتى الطفل أداة للدفاع عن شرف الوطن، وهى القيادة إلى عصب الصراع والتصدى، السلاح لا يكون سوى ربع المعادلة لقد هزمت مصر فى حرب الأيام الستة وسلاحها متفوق، وانتصرت فى حرب أكتوبر وسلاحها أقل تفوقا من السلاح الإسرائيلى وهناك من الإستراتيجيين من يجعل تخطيطه للمعركة أساسه الاستيلاء على سلاح الخصم أو لاستخدامه فى مرحلة لاحقة لاستئصال ذلك الخصم بنفس سلاحه.

نحن نريد الأمة المقاتلة حيث كل خلية فى المجتمع وكل بقعة فيها وكل جزء من أجزائه وكل عنصر من عناصره لا ينبض إلا بصرخة واحدة: أريد أن أفتك بهذا العدو الذى استهان بكرامة شعبى وحقوق أمتى ولم يعرف أن هذه الأمة لها مهابتها هذه الأمة المقاتلة يصير فى داخلها الجيش المهنى بمثابة السمك فى الماء. الجيش المهنى يصير لا قيمة له خارج أمة لأنه كالسمك إن خرج من الماء انتهى وجوده وانتهت حياته. الأمة المقاتلة هى عالمه الذى لا يستطع أن يعيش إلا وقد استخدمه سر بقائه وقوة وجوده. هذه الأمة المقاتلة هى إرادة القتال.

وإرادة القتال تتضافر حول عناصر ثلاثة إرادة التحدى وإرادة المغامرة ثم إرادة التضحية إنها حالة نفسية تنبع من القناعة والإيمان. القناعة بالوظيفة الحضارية والإيمان بأن تلك الوظيفة ليست مجرد كلمات وإنما هى سر البقاء وعلامة استمرارية الوجود إنها العلاقة الأزلية التى تربط الماضى بالحاضر بالمستقبل.

هناك لحظات فى تاريخ الأمم ترتفع فيها الإرادة المقاتلة لتصير وعاء تتبلور فيه معالم النطق وسر الخلود هذه اللحظات هى التى تتكتل فيها كل عناصر القدرة الماضية وكل مقدمات النبوغ القادمة. فى تلك اللحظات يرتفع الإنسان إلى مصاف الآلهة ليسطر أروع صفحات التاريخ. والإنسانية قصتها عامرة بهذه الخبرات، هل نتذكر بريكليس وهو يقود أثينا ضد جحافل الفرس ليمرغهم فى الأوحال؟ وهل نستطيع أن ننسى شيبيون الإفريقى وهو يقف وحوله

شعب روما فى مواجهة هانيبال أعظم قادة التاريخ وكل عنفوان وغطرسة قرطاجة؟ وأين ابن تيمية وهو يستنفر الأمة العربية فى مواجهة المغول والتتار القادمين من الشرق ليعيدهم عقب معركة «عين جالوت» إلى مستنقعاتهم فى وسط آسيا؟

ميثاق قومى لتكتيل الإرادة

لو تتبعنا تاريخ الوطن العربى خلال الأعوام العشرة الماضية، وعلى وجه التحديد منذ زيارة الرئيس الراحل أنور السادات إلى القدس لوجدنا أن جميع المتغيرات كانت تفرض تدعيم إرادة التضامن بين القيادات العربية، بما يعنيه ذلك من نسيان الخلافات، وضم الصفوف، وتكتيل القوى فى قبضة يد واحدة، ولنتذكر الحقائق:

أولا: الفشل فى حل مشاكل العالم العربى على المستوى الجماعى وعلى المستوى القطرى وفى أى بعد من أبعاده: اقتصادى أو ثقافى من دون الحديث عن السياسى أو الدولى.

ثانيا: تضخيم الصراعات المحلية وتصعيدها لتطغى على الصراع القومى بل ولتستوعب الصراع القومى ذاته.

ثالثا: الاتجاه الثابت نحو بلقنة المنطقة.

رابعا: حلول مفهوم الولاء الطائفى موضع الولاء القومى.

خامسا: استقطاب القيادات أو على الأقل بعضها لحساب القوى الأجنبية.

سادسا: نجاح إسرائيل فى فرض هيمنتها على المنطقة.

سابعا: خضوع الأجزاء الجانبية العربية لعملية شد أطراف منظمة وثابتة فى الخليج ثم فى السودان وثالثا فى موريتانيا، وقريبا فى سوريا.

ثامنا: تفجير العلاقات بين دول القلب: العراق وسوريا ومصر والسعودية.

تاسعا: خروج مصر من القدرة العربية.

عاشرا: الانسحاب التدريجى للمساندة السوفياتية من المنطقة وتمركزها فى الأطراف: ليبيا، اليمن الجنوبى، سوريا.

حادى عشر: تلاعب القوى الدولية التقليدية بمصالح المنطقة وحلول لغة التوازى موضع لغة التوازن ويظهر ذلك واضحا فى موضوع الحوار العربى الأوروبى.

ثانى عشر : اتساع المظلة الأميركية على المنطقة لترفرف على جميع أجزائها بشكل أو بآخر مع توظيف ذلك فقط لصالح إسرائيل .

إن أيا من المتغيرات كان كافيا لضم الصفوف ومن يريد أن يفهم الدلالة الحقيقية فليعد ليقرأ بطريقة متأنية خطاب مفاهيم بيغن ردا على خطاب الرئيس السادات فى الكنيست هل قرأ ذلك الخطاب زعيم عربى واحد بعناية ، وهل أخضعته وزارة واحدة للخارجية فى هذا العالم المتسع لنوع من التحليل العلمى؟ أشك فى ذلك ولا أستثنى وزارة الخارجية المصرية نفسها!!

رغم ذلك فلا نزال حتى هذه اللحظة نتساءل ما هى طبيعة ميثاق جامعة الدول العربية؟ أليس هو تنظيم إقليمى؟

النصوص القانونية ليست رموزاً شكلية ، إنها حقائق حية وليست أصناما بل إنها قوى دفينة تتبلور فى نصوص ورموز تعبر عن واقع متدفق وميثاق جامعة الدول العربية قد تحول منذ منتصف الخمسينيات ولم يعد فى جوهره ومعناه هو ذلك الدستور الذى وضعته الدول العربية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية .

وهو لذلك تطور فى صورة واضحة تعبيرا عن هذه الحقيقة :

أولا : عرف مؤتمرات القمة التى هى الصورة الصريحة الناطقة فى تكتيل الإرادة الجماعية .

ثانيا : قبل منظمة التحرير الفلسطينية فى عضويته كعضو عامل رغم أنها لا تملك أى تمثيل دولى وليست تعبيرا عن أى تنظيم حكومى أو إرادة إقليمية .

ثالثا : استقر على جعل إدارة المرافق القومية من اختصاص منظمات ذات استقلال كامل أيضا عن جامعة الدول العربية نفسها .

هذه الطبيعة لم تبرز واضحة إلا عقب سياسة الرئيس السادات ومع هذا لم تفهم ذلك لا القيادات الساداتية ولا القيادات العربية الأخرى التى لم تعرف كيف تصوغ سياستها من هذا المنطلق ، فهل آن لنا أن نفهم معنى ذلك وأن نقبل دلالته الواضحة؟ ميثاق جامعة الدول العربية هو ميثاق وظيفته فقط وأساسا تكتيل الإرادة العربية ، فهل نحن واعون بنتائج ذلك؟ ولكن هل من مستمع .

* * *